ترجمة النصوص القرآنية والتعليق عليها

أحب أن أنبه منذ البداية إلى أني سأعزو ترجمة الآيات القرآنية في كل مادة وردت فيها إلى كاتب المادة نفسه، لأنه ما من ترجمةِ آيةٍ في أي موضع من الموسوعة في حدود ما لاحظت قد نُسِبَتْ إلى أي شخص آخر.

ومن ذلك أن كاتب مادة «جَنَابة» يترجم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[1] على النحو التالي: «When ye have had marital intercourse with your wives purify yourselves »[2]، ومعناه أنه «عندما تجامعون زوجاتكم فاطَّهَّروا». وليس هذا هو ما يقوله النص القرآني الكريم، إذ الجنابة لا تنشأ عن مجامعة الزوجة فقط، بل تنشأ أيضًا عن مجامعة الرجل لأمته وعن الزنى، كما تنشأ عن الاحتلام. فالترجمة، كما ترى، شديدة القصور عن تأدية المعنى الذي في الآية. وقد كان من الأفضل لو أنه أبقى على كلمة «جُنُبا» كما هي ثم فسرها في الهامش على النحو الذي فعلتُ هنا.

وفي مادة «جَنّة» نجد كاتبها يترجم قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[3] إلى: «(The elect) shall repose on couches the linings of which shall be of brocade»[4]، جاعلاً «متكئين»: «repose: مستريحين» وهذا غير ذاك، وكذلك واضعًا «couches: أرائك» بإزاء «فُرُش»، والأرائك لا يشار إلى بطائنها في مثل هذا السياق، ولا تكون هذه البطائن، إن وجدت، من إستبرق.

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) ١/٨٨.

(٣) الرحمن: ٥٤.

(٤) ١/٨٨.

وهو يترجم كلمة «جانّ» في قوله تعالى عن حور الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾(٥) بـ «spirit: روح»(٦). كما يترجم ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾(٧) بـ: «cups of flowing wine»(٨)، جاعلاً المعين،وهو الماء النابع على سطح الأرض، خمرا. وشتان هذا وذاك.

وعند ترجمة قوله تعالى عن قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾(٩) يجعل كاتب مادة «نمرود» النفي في الآية استفهامًا، فأصبح معنى الكلام: «فماذا كان جواب قومه؟ إنما قالوا: اقتلوه. حرّقوه: «What did Ibrahim's People answer? They only said Kill him, burn him»(١٠) ولعل القارئ قد لاحظ أيضًا أن المترجم قد حذف حرف العطف «أو» من بين «اقتلوه» و«حرّقوه».

وفي مادة «نكاح» يقع كاتبها، عند ترجمة الآية ٢٤ من سورة «النساء»، في غلطة مضحكة تدل على غياب العقل غيابًا تامًا، وإلا فهل يُعْقَل أن يحرِّم الله سبحانه الزواج من المرأة المهذبة العفيفة؟ لكن المستشرق صاحب المادة قد ترجمها على هذا النحو، فنقل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (ومعناه أنه محرم عليكم أيضًا نكاح النساء المتزوجات) إلى الإنجليزية هكذا: «decorous wamen: النساء المهذبات العفائف»(١١). فهل يحرّم القرآن على الرجال الزواج من العفيفات المهذبات؟

---

(٥) الرحمن: ٥٦، ٧٤.

(٦) ١/٨٨.

(٧) الواقعة: ١٨.

(٨) ١/٨٨.

(٩) العنكبوت: ٢٤.

(١٠) ١/٤٣٧.

(١١) ١/٤٤٧.

وماذا يفعل من يريد الزواج إذن؟ هل يذهب إلى المنحرفات والمومسات فيتزوج منهن؟ لكن القرآن الكريم قد حرم ذلك على المؤمنين(١٢)، فهل يعني ذلك إذن أنه ليس أمام المسلم الذي يريد أن يطيع ربه ويفوز بمرضاته إلا أن يعيش طول عمره عَزَبا مترهبا؟ ولا حتى هذه أيضًا، إذ إننا نعرف أن الرهبانية ليست من الإسلام. فانظر إلامَ تؤدي هذه الترجمة الذاهلة.

إن لكلمة «مُحْصَنات» أكثر من معنى، ومنها المعنى الذي ترجمها به الكاتب، لكن ذلك المعنى ليس هو المراد في الآية، بل المقصود المعنى الآخر، وهو «النساء المتزوجات». وقد فات ذلك كاتبَ المادة فوقع في هذا الخَطإ المضحك.

وغلطة أخرى مضحكة، وإن كانت أخف، وقع فيها كاتب مادة «ربا» وذلك حين ترجم قوله تعالى عن اليهود: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾(١٣) إلى:

:And (they) devour uselessly the substance of the people» وأكلهم بلا فائدة أموال الشعب»(١٤). إن عبارة «بالباطل» إنما تعنيْ أكل أموال الناس ظلمًا وإثمًا. ويمكن أن تترجم إلى «wrongly» أو «wrongfully» أو «inequtably» أو «unjustly» مثلاً. أما «uselessly» فلا. وفضلاً عن ذلك فقد وضع المترجم أداة التعريف «the» قبل «people» فتحول معناها من «الناس» إلى «الشعب»، وليس هذا ما تقول الآية كما هو واضح مبين. ولا أدري لماذا فعل ذلك.

كذلك لا أدري لماذا ترجم كاتب مادة «صالح» كلمة «تمتعوا» في الآية الكريمة التالية: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أيام﴾ (١٥) (وهي الآية التي تتحدث

(١٢) النور: ٣.

(١٣) النساء: ١٦١.

(١٤) ١/٤٧١.

(١٥) هود: ٦٥.

عن المهلة التي أُعْطِيَتْ لقوم صالح قبل أن ينزل الله بهم عقابه المدمر جزاء لهم على كفرهم) بما معناه: «اختفوا في داركم ثلاثة أيام»[16]. ذلك أنه لا علاقة البتة بين «التمتع» و«الاختفاء».

وعند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [17] نرى كاتب مادة «شفاعة» ينقل ذلك إلى الإنجليزية هكذا: «Those who bear the throne and surround it sing the praise of their Lord [18]»، أي أنه جعل الملائكة جماعة واحدة تحمل العرش وتحيط به في ذات الوقت، على حين أن القرآن يتحدث عن طائفتين منهم: طائفة تحمل العرش، وأخرى حوله. ثم إن الآية تذكر تسبيحهم وحمدهم، أما هو فقد جعلهم يسبحون فقط.

وفي مادة «شهيد» نقرأ ترجمة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[19] كالآتي: «And thus we have made you a people in the middle that ye may be witnesses in regard to you[20]» ومعنى ذلك بالعربية: «وهكذا جعلناكم شعبا في الوسط لتكونوا شهداء عليكم». ولا أظن الأمر محتاجًا إلى توضيح الأخطاء التي اجترحها المترجم في حق النص القرآني.

ويترجم كاتب مادة «سليمان» كلمتي «محاريب» و«جِفان كالجوابي» في قوله

(١٦) ٤٩٩/ ٢.

(١٧) غافر: ٧.

(١٨) ٥١١/ ٢.

(١٩) البقرة: ١٤٣.

(٢٠) ٥١٥/ ٢.

عـز وجل عن جن سليمـان: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾[٢١] بـ «shrines: أضرحة» و«costly vessels: أوانٍ غالية» على التوالي[٢٢]. فهل «المحاريب» هي الأضرحة؟ وهل «الجفان التي كالجوابي»، أي الجفان الواسعة الضخمة كالأحواض، هي «الأواني الغالية»؟

وفي مادة «تهجُّد» تُتَرْجَم الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾[٢٣] بـ And perform the Salat at both ends of the day and in the last part of the night[٢٤]»، جاعلاً «زُلَفا من الليل»: «الجزء الأخير من الليل»، على حين أنها مع التوسع الشديد في تفسيرها تعني أوقاتًا من الليل. أما إذا أردنا التحديد فإن معناها هو السّاعات الأولى من الليل[٢٥]. وعلى هذا يتبين لنا كم أبعد الكاتب في نقل الآية إلى الإنجليزية.

وفي المادة ذاتها أيضًا ينقل الفعل «قُمْ» في قوله عز شأنه: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٦] إلى الإنجليزية هكذا: «stand up»، أي «قف»[٢٧]. وليس المراد وقوف الرسول على قدميه، بل معناه الاستيقاظ وقضاء الليل في العبادة من صلاة وقراءة قرآن. فانظر كيف لم يفهم المترجم النص فأداه بالإنجليزية هذه التأدية العجيبة!

---

(٢١) سبأ: ١٣.

(٢٢) ٥٥٠ /١.

(٢٣) هود: ١١٤.

(٢٤) ٥٥٩ /١.

(٢٥) انظر مثلاً الزمخشري/ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ ٢/ ٢٩٦، والطبرسي/ مجمع البيان/ مجلد ٣/ حـ ١٢/ ٢٣٠.

(٢٦) المزمل: ٢.

(٢٧) ٥٥٩/١.

كذلك فـ «الصعيد الطيب» (في النص القرآني التالي عما ينبغي أن يفعله المسلم الذي لا يجد الماء أو يضره استعماله ويريد مع ذلك أن يتطهر لأداء الصلاة: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (٢٨)) هو ما يوجد على وجه الأرض من رمل أو تراب أو نحوه. لكن كاتب مادة «تيمم» يترجمها إلى «sand»(٢٩)، وهو الرمل، فيضيّق ما وسّعه الله واتسع له اللسان العربي. وهو تصرف خاطئ منشؤه الجهل باللغة.

ويترجم المستشرق فنسنك قوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾(٣٠) كالآتي: «And he (Alexander) prosecuted his journey from south to north, until he came between the two mountains beneath which he found certain people, who could scarce understand what was said: وتابع (الإسكندر) رحلته من الجنوب إلى الشمال حتى وصل بين الجبلين اللذين وجد تحتهما قومًا لا يكادون يفقهون قولاً»(٣١)، مفسرًا ذا القرنين بأنه الإسكندر، مما لا وجود له في القرآن، ومقحمًا على النص القرآني أن الرحلة كانت من الجنوب إلى الشمال، وجاعلاً السدّين جبلين، ومترجمًا قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾ إلى «تحتهما». وهي جملة أخطاء غير هينة.

ويأخذ كاتب مادة «يونس» كلمة «نَقْدِر» في الآية التالية: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾(٣٢) بمعناها الشائع، أي «ظن أن الله لن يستطيع أن

(٢٨) النساء: ٤٣، والمائدة: ٦.

(٢٩) ١/٥٨٨.

(٣٠) الكهف: ٩٢، ٩٣. وقد ذكر الكاتب أنها الآية ٩٣ وما بعدها، وهو غير دقيق.

(٣١) ١/٦٣٧/ مادة «يأجوج ومأجوج».

(٣٢) الأنبياء: ٨٧.

تكون له قدرة عليه: He thought We could excercise no power over him «(٣٣)، وهو ما لا يمكن أن يطوف بذهن نبي اصطفاه الله على عينه. وإنما الذي يليق بيونس عليه السلام أنه ظن أن الله لن يضيّق عليه الأمر أو يحاسبه على ما فعل، أو حَسِبَ أنه عز شأنه لن يضعه في ضيق ومحنة لقاء يأسه من قومه وتَرْكِه إياهم مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له بذلك. وقد وردت كلمة «يقدر» في عدة مواضع في القرآن بمعنى «التضييق والتشديد»، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾(٣٤)، ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾(٣٥)، ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** ﴾(٣٦) وغير ذلك من الآيات.

فهذه عدة شواهد قليلة على عدم توفيق كتاب الموسوعة في ترجمة النصوص القرآنية. ويمكن للقارئ أن يراجع الكتاب بنفسه ليجد أمثلة أخرى على هذا العيب الشائن.

على أن في الموسوعة أخطاء أخرى تتعلق بالنص القرآني من غير جهة الترجمة، إذ كثيرًا ما يدّعي كتّابها على القرآن ما ليس فيه ويقوّلونه ما لم يقله. وفي أهون الأحوال يفهمون الآية أو الآيات على غير وجهها.

فمثلاً يدعي كاتب مادة «سُنّة» أن جمع هذه الكلمة قد ورد في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾(٣٧). بمعنى «أحكام» «Judgements»(٣٨). وهذا كلام خاطئ من

---

(٣٣) ٢/٦٤٥.

(٣٤) الرعد: ٢٦.

(٣٥) الإسراء: ٣٠.

(٣٦) سبأ: ٣٩.

(٣٧) آل عمران: ١٣٧.

أساسه، فإن كلمة «سنن» هنا إنما تعني القوانين الإلهية الخاصة بمعاقبة الأمم الكافرة المعاندة التي تحادّ ربها ورسله.

وكذلك يبدي كاتب مقال «الله» استغرابًا شديدًا من أن تكون صفة «الضارّ» (وهي اسم من أسماء الله) قد وُصف بها الشيطان في القرآن(٣٩). يقصد الآية العاشرة من سورة «المجادلة»، التي تقول: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾. والآية، كما هو واضح، تنفي عن الشيطان استطاعة إيقاع الضرر بالمؤمنين، وتجعل ذلك لله سبحانه، الذي منه الضرر والنفع وكل شيء في الكون. بيد أن المستشرق الخبيث يعتقد أن بمستطاعه إثارة الشك والاضطراب حول جانب من جوانب العقيدة الإسلامية بهذه الطريقة الساذجة. إن الله سبحانه عليم قوي قدير مريد... إلى آخر صفاته الحسنى، وفي الوقت ذاته فنحن البشر نتمتع بشيء من العلم والقوة والقدرة والإرادة. ومن ذلك مثلاً وصف يوسف عليه السلام لنفسه في القرآن بأنه ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤٠)، والحفظ والعلم من صفات الله عز شأنه. بل لقد ذكر القرآن أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان «يخلق» من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيرا. ولا يعني هذا أبدًا أننا نشترك معه سبحانه في هذه الصفات، بل نحن في الواقع نستمدها منه. وقد قيل عن خلق عيسى للطير من الطين إنه «بإذن الله». وكذلك الشيطان إذا ضرّ أحدًا فإنما يضره بإذن الله لا باستقلال منه. والمستشرق الخبيث يهدف إلى الإيهام بأن بين الشيطان والرحمن صفات مشتركة، تعالى الله عن ذلك، فهو الكريم العظيم القدوس.

---

(٣٨) ١/٥٥٢.

(٣٩) ١/٣٥.

(٤٠) يوسف: ٥٥.

وفي مادة «آدم» نرى كاتبها يقول إن القرآن في جعله آدم مَلِكًا للملائكة قد تابع المدراس السرياني النصراني(٤١). والواقع أنه ليس في القرآن شيء من هذا الذي يقوله الكاتب. إن الملائكة في القرآن قد أُمرت أن تسجد لآدم، ولكن هذا شيء والقول بأن القصة القرآنية قد ذكرت أن الله جعله مَلِكًا للملائكة شيء آخر افتراه الكاتب على القرآن.

على أن ذلك لا يعد شيئًا يُذْكَر بجنب ما قاله (محيلاً على الآية ٣٦ من سورة «البقرة» وعلى التلمود البابلي) من أن آدم بعد أن طُرد من الفردوس قد هبط على جزيرة سيلان، حيث بقي هناك مائتي عام بعيداً عن زوجته يكفر عن سيئته(٤٢). وعبثًا يحاول الباحث منا أن يعرف لماذا أحال ذلك المستشرق على الآية السادسة والثلاثين من «البقرة». ذلك أنه ليس فيها البتة شيء مما قال. وعلى أية حال فهذا نصها كاملاً، والكلام فيها عن آدم وحواء: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾، وهي كما ترى تخلو من أي شيء عن سيلان من قريب أو بعيد، أو عن انفصال آدم عن حواء، أو بقائه هناك مائتي سنة. وكان ينبغي على كاتب المادة ألا يزج بالقرآن مع التلمود في قَرَنٍ واحد، لأن هذا الصنيع عبث غير مقبول في ميدان البحث العلمي.

ويقول أيزنبرج في أثناء كلامه عن حواء، محيلاً على ا لآية ١٩ من سورة «الأعراف» وما يليها، إنها تتحمل النصيب الأكبر من إثم الخطيئة الأولى(٤٣). وهذا كلام لا أساس له من الصحة، فالقرآن، بما فيه سورة «الأعراف»، يجعل المسؤولية مسؤولية آدم وحواء معا: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾

---

(٤١) ٢/١٣.

(٤٢) نفس الموضع.

(٤٣) ١/١٣٨/ مادة «حواء».

(٤٤) البقرة: ٣٦.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾(٤٥). إن ما يفتريه هذا المستشرق على القرآن إنما يَصْدُق على رواية العهد القديم لهذه القصة(٤٦)، تلك الرواية المتحيزة للرجل ضد المرأة والتي تشكل حلقة في سلسلة احتقار المرأة في الفكر الديني اليهودي والنصراني. أما الإسلام فإنه أنصف الجنس الرقيق ودعا إلى الرفق به، وجعل رسولنا الكريم صلوات الله عليه وسلامه الجنة جزاء من يحسن تربية ابنته حتى تكبر وتتزوج، وأحلّ عليه السلام الأم محلاً رفيعًا وقدمها على الأب وشرّفها بجعل الجنة تحت قدميها. فهذا هو موقف الإسلام، إلا أن عامة المستشرقين حريصون على تشويه ديننا وكتابنا ورسولنا وكل ما يتصل بنا، حربًا ضروسًا لا هوادة فيها يشنونها علينا محاولين تحطيمنا وإذلالنا وتركيعنا.

والملاحظ أن المستشرق أيزنبرج قد ذكر الشجرة التي أكل منها آدم وحواء على أنها «شجرة الشر: the tree of evil»(٤٧)، وهذه فرية أخرى على القرآن، إذ هو لم يسمّها قط في أي موضع منه.

أما في مادة «الجن» فيقول كاتبها: «إن علاقة الجن بإبليس... في القرآن غير واضحة: ففي الآية ٥٠ من سورة «الكهف» أنه من الجن، إلا أن الآية ٣٤ من سورة «البقرة» توحي أنه من الملائكة. ومن ثم نشأ اضطراب كبير وظهر كثير من المرويات والافتراضات»(٤٨). أما أن بين المفسرين من يقول إن إبليس من الملائكة فهذا صحيح،

---

(٤٥) الأعراف: ٢٢، ٢٣.

(٤٦) طه: ١٢١.

(٤٧) تكوين/ ٣/١ ـ ١٩.

(٤٨) ٢/٩٠.

ولكن عدد هؤلاء قليل، ومع ذلك فليس هذا الاختلاف راجعًا إلى عدم وضوح علاقة إبليس بالجن في القرآن، فالآية ٥٠ من سورة «الكهف» لا تترك أدنى شك في أنه من الجن: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. ويؤكد هذا المعنى قولُ إبليس في تعليل رفضه السجود لآدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٤٩)، إذا من المعروف أن النار هي العنصر الذي جَبَل الله منه الجن. جاء في سورة «الحِجْر» في سياق التمهيد لقصة الخلق وأمْر الله الملائكة بالسجود لآدم وتمرد إبليس على ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾(٥٠).

وفي ضوء هذه الآيات الواضحات البينات ينبغي فهم الاستثناء الوارد في قصة السجود لآدم، حيث يعصي إبليس أمر الله سبحانه له(٥١) وللملائكة أن يسجدوا لأبي البشر. وهذا ما فعله معظم المفسرين، وهم المفسرون الكبار الذي يؤبه بهم وبكلامهم، إذ قالوا بحق إن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)﴾(٥٢) وأمثاله هو استثناء منقطع، بمعنى أن المستثنَى (وهو إبليس) ليس واحدًا من جنس المستثنَى منه (وهو هنا الملائكة). وذلك كما يقال في أمثلة النحو: «قام الطلاب إلا حمارًا»، والحمار ليس داخلاً في الطلاب بل ولا في جنس البشر على الإطلاق.

(٤٩) الأعراف: ١٢، وص: ٧٦.

(٥٠) الحجر: ٢٦، ٢٧. وانظر أيضًا الآيتين ١٤، ١٥ من سورة «الرحمن».

(٥١) قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف: ١٢)، أي أن الله قد أمر إبليس أيضًا مثلما أمر الملائكة، ولكن عند الحديث عن عصيانه استثناه منهم استثناء منقطعًا.

(٥٢) الحجر: ٣٠، ٣١.

وحتى لا يقول قائل إن توجيه الكلام في الآية على هذا النحو هو توجيه متكلف نذكر للقارئ أن في القرآن عدداً من الشواهد على هذا الاستثناء في مجالات متعددة من بينها قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾(٥٣)، حيث استثنى من الشقاء تذكير من يخشى، وليس التذكير داخلاً في الشقاء. ومنها قوله عز وجل على لسان إبراهيم عن الأصنام: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧ ﴾(٥٤)، ورب العالمين ليس واحداً من الأصنام، ومع ذلك فقد استُثنى منها. ومنها قوله جل شأنه عن السابقين من أهل الجنة: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾(٥٥)، وغير ذلك من الآيات مما ذكرته في كتابي «سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة»(٥٦).

وعلاوة على هذا فإن الملائكة، كما يقول القرآن، ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾. وإبليس، هذا المتمرد العاتي، لا يمكن إذن أن يكون منهم، فاستثناؤه منهم هو استثناء منقطع كما قلنا. وعلى هذا فليس في القرآن أي غموض حول علاقة إبليس بالجن. إنه هو والشياطين فئة منهم، وهي الفئة العاصية المتمردة الضالة المضلة(٥٧). ومن هذا يتضح أن ما قاله كاتب مقال «الجن» في هذا الموضوع هو مجرد طنطنة فارغة!

ويتهم المستشرق فنسنك القرآن بأنه استمد قصة إبليس من مصادر نصرانية، ثم يمضي فيلخص ملامح القصة كما وردت في تلك المصادر على النحو التالي:

(٥٣) طه: ١ ـ ٣. (٥٤) الشعراء: ٧٧.

(٥٥) الواقعة: ٢٥، ٢٦.

(٥٦) سورة طه: ١٢٣، ١٢٤، والتحريم: ٦. وانظر في هذا المعنى النحل: ٥٠، والأنبياء: ٢٨.

(٥٧) سبق أن عالجت هذه المسألة في كتابي «سورة طه»/ ١٢٢ ـ ١٢٤.

«يُرْوَى أن ميكائيل قد أمر الملائكة بعبادة آدم، لكن الشيطان اعترض بأن آدم أقل أهمية منهم وأصغر سنًا، ثم رفض هو وجنوده فأُهْبِطوا إلى الأرض... وقد أعطى الله آدم سلطانًا على كل المخلوقات، ومن ثم أجلّته الملائكة ما عدا الشيطان، الذي أصبح غيورًا وقال: إنه هو الذي ينبغي أن يعبدني أنا النور والهواء، على حين أنه هو تراب. وعلى ذلك فقد أُهبط هو وجنوده من السماء...»(٥٨).

والحمد لله أن الكاتب قد كفانا مؤنة التنقيب عن المصادر النصرانية التي يدعي أن القصة القرآنية عن إبليس قد استُمدت منها. وإن المقارنة بين تفصيلات القصتين لتبرهن بكل قوة وحسم على أن كلام ذلك المستشرق هو مجرد ادعاء لا أساس له من الصحة: ففي القرآن الكريم أن الذي أمر الملائكة هو الله، أما في تلك المصادر النصرانية فإنه ميكائيل، الذي لم يرد اسمه ولا الإشارة إليه في القرآن في سياق تلك القصة البتة. وعلى حين تقول الروايات النصرانية إن الأمر كان بعبادة آدم(٥٩) فإن الأمر في القرآن كان بمجرد السجود له. والسجود ليس هو العبادة بالضرورة. إنه قد يكون صورة من صورها في بعض الأحيان، ولكنه في أحيان أخرى لا يزيد على كونه آية على الاحترام والطاعة، وهو ما نجزم بقوة أنه هو المقصود في القصة القرآنية لما نعرفه من أن الإسلام يحرم تحريمًا قاطعًا توجيه العبادة لأي كائن غير الله سبحانه وتعالى. كذلك فقد كان اعتراض إبليس في القرآن على السجود لآدم قائمًا على أنه مخلوق من نار وآدم من طين، أما في المصادر النصرانية فقد أقام عدوُّ الله رفضه على أساس أن آدم أقل أهمية من الملائكة (الذين

---

(٥٨) ٢/١٤٥/ مادة «إبليس».

(٥٩) لاحظت، وأنا أدرس بعض الترجمات الفرنسية للقرآن التي قام بها المستشرقون، أن عددًا منهم قد ترجم قوله تعالى للملائكة: «اسجدوا لآدم» بـ «اعبدوا آدم». وقد أشرت إلى هذا في كتابي «المستشرقون والقرآن».

ينتمي إليهم إبليس حسب تلك المصادر) وأصغر سنًا، وكذلك على أساس أنه هو نور وهواء بينما آدم تراب. وفي هذا من الفروق بين القصتين ما فيه. والرفض في القرآن قد وقع من إبليس وحده، أما في الرواية النصرانية فقد حدث من إبليس وجنوده. وهذا فرق آخر يضاف إلى الفروق التي سلفت، وكلها كما نرى فروق جوهرية. وبالإضافة إلى ذلك فإن موقف إبليس في القصة القرآنية قد اقتصر على عدم السجود لآدم، أما في الرواية النصرانية فقد زاد على ذلك أن طلب أن يعبده أبو البشر. كذلك فالقرآن قد ذكر أن الله أمر إبليس قائلا: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾ (٦٠)، دون أن يحدد علام يعود الضمير في «منها» و«فيها»، بخلاف الرواية النصرانية للقصة، التي تجعل ذلك الهبوط من السماء تحديداً.

من هنا يتبين لنا أن بين القصتين عدداً غير قليل من الفروق الجوهرية التي تبرز الشخصية المستقلة للرواية القرآنية. على أننا نحن المسلمين نعترف بأن النصرانية هي ديانة سماوية، بيد أننا نعتقد في ذات الوقت أنه قد دخلها كثير من العبث والتحريف. وهذا يفسر لنا نقط التشابه وفي الوقت عينه نقط الاختلاف بين ما في كتابنا وكتب القوم. إن مرجع نقاط المشابهة هو أن كلا من ديننا ودينهم مصدره السماء، أما نقاط الاختلاف فمرجعها إلى بقاء كتابنا سالما مما أصاب كتابهم من التحريف وزحفْ العبث والتزييف عليه. وليس هذا كلامنا نحن فقط، إنما هو كلام الباحثين منهم أيضاً، وهو معروف مشهور للجميع. وقد كانت نتيجة البحوث العلمية التي أظهرت ما يطفح به الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد من أخطاء أنْ تراجَعَ رجال الدين من يهود ونصارى عن ادعائهم السابق بأن كل كلمة في ذلك الكتاب هي وحي إلهي إلى القول بأن الوحي مقتصر على المضمون الكلي، أما التفصيلات والمعلومات التاريخية والجغرافية والحسابية والعلمية فهي أشياء بشرية يتأثر فيها

(٦٠) الأعراف: ١٣.

تلقّي الوحي بظروفه الشخصية والعوامل البيئية وما يعتري الناس جميعًا من عوارض السهو والنسيان والخطإ(٦١). وهو تراجع فيه ما فيه من الدلالة الجازمة على صدق ما قاله القرآن الكريم في حق كتب أهل الكتاب. فإذا كان هذا هو حال الكتاب المقدس عندهم فما بالنا بتفسيراته وشروحه التي تنتمي إليها قصة إبليس في مصادر النصرانية؟

ويدعي كاتب مقال «الجنّة» أنه متحير في فهم التثنية في سورة «الرحمن»، التي تتحدث، كما يقول، عن جنتين في كل منهما نوعان من الفاكهة، وعن مشرقين ومغربين وبحرين(٦٢)، وإن كان قد استثنى «البحرين». ومع ذلك فقد عزّ عليه هذا الاستثناء فقيّده بكلمة «ربما» (هكذا: «باستثناء، ربما، البحرين»).

والحق أنه لا صعوبة في شرح هذه التثنية. فأولاً: السورة تخاطب الجن والإنس، ولذلك تستخدم صيغة المثنى في هذا الخطاب سائلة إياهما بعد كل آية أو آيتين هذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾؟ وثانيًا: المقصود بالمشرقين والمغربين مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما. وثالثًا: الجنتان وكل أنواع الفاكهة التي تحتويانها والتي يوجد من كلٍّ فيها زوجان هي دليل على زيادة الكرم الإلهي في الآخرة للمؤمنين الذين يخافون مقام ربهم. ورابعًا: البحران هما البحر الملح والبحر

(٦١) انظر في ذلك كتابي «موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم»/ ٣١ ـ ٤٠. والحقيقة أن أخطاء الكتاب المقدس تمتد حتى إلى المضمون العقيدي والأخلاقي ذاته، ولا تقتصر على المعلومات التاريخية والجغرافية والحسابية والعلمية: فالله عندهم يتمشى في الجنة ويختبئ منه آدم فلا يعرف مكانه إلا بسؤاله عنه بصوت عال، ويعقوب يصارعه وينتصر عليه، وهو سبحانه ينوح ويلطم وجهه ندمًا على معاقبته بني إسرائيل، ونُوحٌ يسكر حتى يفقد رشده تمامًا وينطرح على الأرض عريان السوأة، ولوط تسقيه ابنتاه خمرًا وتضاجعانه، وداود يزني بامرأة قائده وجاره... وغير ذلك، وهو كثير.

(٦٢) ١/٨٨.

العذب، أو كما نقول الآن: البحر والنهر. فما المشكلة إذن؟ ولقد زعم بلاشير في ترجمته للقرآن إلى الفرنسية أن الرسول قد جرى في هذه السورة على عادة الشعراء العرب في الجاهلية من مخاطبتهم في قصائدهم صاحبين لهم. وقد رددت عليه في كتابي «المستشرقون والقرآن»(٦٣)، مبينًا بشواهد من الشعر الجاهلي أنهم لم يكونوا يتبعون وتيرة واحدة في ذلك، بل تارة يخاطبون صاحبًا واحدًا، وتارة اثنين، وتارة جماعة من الأصحاب. أريد بإشارتي هذه إلى بلاشير (الذي ذكر الكاتب ترجمته بين المراجع التي يُرْجَع إليها في مسألة الحيرة في فهم التثنية في سورة «الرحمن») أن أبين كيف أن هؤلاء الناس يتعمدون الإساءة إلى القرآن والرسول عليه الصلاة و السلام كلٌّ بطريقته، وكلٌّ باعتساف الدعوى دون دليل.

ويجعل هوروڤيتز كلمة «التوراة» من الوحي المدني(٦٤). وهذا كلام غير صحيح، فقد ورد هذا اللفظ قبل ذلك في آية مكية هي الآية ١٥٧ من سورة «الأعراف»، التي جاء فيها من أوصاف المؤمنين الذين سيفوزون برحمة الله أنهم هم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾.

وهناك خطأ آخر سقط فيه هوروڤيتز في هذه المقالة، وهو قوله إن في الآية ٤١ من سورة «النساء» إشارة إلى تحريف اليهود للكَلِم عن مواضعه ومثالاً على ذلك التحريف(٦٥). والواقع أن هذه الآية لا علاقة لها البتة بموضوع التحريف بل ولا باليهود أصلاً. وهذا نصها: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾، ومن البين أنها تتكلم عن موضوع مختلف تمامًا عن موضوع

---

(٦٣) وذلك في الفصل الذي خصصته للنظر في ترجمته وتقويمها وإبراز الأخطاء الشنيعة فيها، وهو الفصل الثالث من الباب الأول من ذلك الكتاب.

(٦٤) ٥٨٧/ ١.

(٦٥) ٥٨٨/١.

حريف اليهود لتوراتهم.

وربما كان هذا هو السبب في أن د. راشد البراوي، مترجم الموسوعة إلى عربية، قد غير رقم الآية من ٤١ إلى ٤٤[٦٦]. لكن الآية الرابعة والأربعين هي أيضًا خلو من الحديث عن التحريف المذكور. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا نَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾. وإني لأتساءل في حيرة: لماذا اختار الدكتور البراوي هذه الآية بوصفها تتضمن مثلاً من تحريفات ليهود لكتابهم؟

ومن ادعاءات الموسوعة العجيبة على القرآن ما ذكره كاتبا مادة «إبراهيم»[٦٧]، عتماداً على ما كتبه بعض زملائهما من المستشرقين، من أن الوحي المكي لم تعرض لإبراهيم بوصفه بانيًا للكعبة ولا لصلة إسماعيل به، أما في المدينة فقد حدث القرآن عن بنائه هو وإسماعيل لها. وتفسير ذلك، كما و رد في تلك المقالة، أن الرسول عليه السلام كان يتجه إلى اليهود عندما كان في مكة، ولكنه ما إن انتقل لى المدينة حتى تبين له انصرافهم عنه، فاضطر حينئذ أن يبحث عن معضّد آخر. بذكاء شديد اخترع هذا الدور الجديد لإبراهيم، واستطاع بذلك الاستقلالَ عن ليهودية المعاصرة له وإقامةَ صلة مباشرة بينه وبين يهودية إبراهيم، الذي جعل منه نذاك أول مسلم. وعندما احتلت مكة في بنائه الفكري دوراً بارزًا أضحى إبراهيم ني ذات الوقت مؤسس بيتها الحرام»[٦٨].

وهذه كلها، والحق يقال، مغالطات يصعب على الإنسان أن يتصور كيف ستطاع هؤلاء المستشرقون أن يُقْدِموا على اجتراحها بكل هذه الجراءة والثقة وبرود

(٦٦) الموسوعة الإسلامية الميسرة / ١/٢٠٨.

(٦٧) وهما أيزنبرج وڤنسنك.

(٦٨) ١/١٥٥. وانظر أيضًا ٢/٣٩٨، و ١/٣٩٩/ مادة «محمد».

الأعصاب. ولكن لا عجب، فليست المسألة عند معظم هؤلاء الناس فيما يتعلق بالإسلام هي مسألة بحث عن الحقيقة وتقرير لها بل مسألة صراع حضاري يجعلون وُكْدَهم فيه تحطيم ديننا وإفقادنا ثقتنا به وبأنفسنا حتى يتسنى لأممهم السيطرة علينا وعلى ثرواتنا إلى الأبد. وإنني كلما ازددت معرفة بهؤلاء الناس واتسع اطلاعي على ما يسطّرون تأكد يقيني بصدق ما قاله القرآن عن أسلافهم من أنهم يعرفون صدق الرسول عليه السلام كما يعرفون أبناءهم و أنهم يكتمون الحق عن علم وسبق إصرار وعناد وكُفور(٦٩).

ونحن حين نقول ذلك لا نلقي الكلام علي عواهنه بل نقوله موثقًا معضدًا بالدليل. ونظرة في القرآن تطلعنا على أن إبراهيم عليه السلام قد وُصف فيه بأنه «مسلم»، لكن لم يُقَلْ عنه قط إنه ﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾. بل الذي وُصف بذلك هو محمد عليه الصلاة و السلام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾(٧٠). ليس ذلك فحسب، بل إن إبراهيم ليس هو الوحيد من بين السابقين على الرسول عليه السلام الذي وُصف في القرآن بأنه مسلم، فقد قال نوح عليه السلام من قبله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧١)، كما وُصف لوط وآله بالإسلام، إذ جاء على لسان الملائكة الذين بعث الله بهم لتدمير قومه قولهم: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٧٢)، وقد كان لوط معاصرًا لخليل الله إبراهيم. ويقول يوسف مبتهلاً إلى

(٦٩) انظر الآيات ١٤٦، ١٥٩، ١٧٤ من سورة «البقرة»، والآية ٢٠ من سورة «الأنعام».

(٧٠) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣. وانظر أيضًا الزمر: ١٢.

(٧١) يونس: ٧٢.

(٧٢) الذاريات: ٣٦.

ربه: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[٧٣] وحين هدد فرعون سَحَرَتَه بعد أن انفضوا عنه وآمنوا بموسى عليه السلام تضرَّع هؤلاء السحرة إلى الله قائلين: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [٧٤]. وهذا كله في الوحي المكي، أما في المدني فنسمع الحواريين يقولون لعيسى عليه السلام: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٧٥].

أما ما جاء في المقالة من أن الرسول عليه السلام، بعد رفض اليهود له، قد تحول إلى إبراهيم وربط نفسه بيهوديته فهو قول يناقض الوقائع التاريخية التي لا تقبل الشك، فقد ورد في القرآن: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾[٧٦]، فكيف يدعي هؤلاء أن الرسول كان ينظر إلى ديانة إبراهيم على أنها اليهودية وها هو ذا القرآن، الذي يزعمون أنه من عند محمد، ينفي عن إبراهيم اليهودية (والنصرانية أيضًا)؟

ومثل ذلك في الافتراء ادعاؤهم بأن الوحي المكي لم يذكر ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة ولا علاقة إسماعيل به، فقد جاء في سورة «إبراهيم»، وهي من السور التي نزلت بمكة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ

(٧٣) يوسف: ١٠١.

(٧٤) الأعراف: ١٢٦.

(٧٥) آل عمران: ٥٢. وقد ورد مثل هذه العبارة في المائدة: ١١١.

(٧٦) آل عمران: ٦٧.

مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾(٧٧).

ثم ننسف أصل هذه الدعوى المفتراة بأن ننظر في الآيات المكية التي تحدثت عن اليهود لنرى موقف القرآن الكريم منهم قبل الهجرة وهل كان موقف تقرب إليهم وملاطفة لهم كما يزعم الذين كتبوا المادة التي نحن بصددها ومادة «محمد» وغيرهما من مواد الموسوعة. جاء في سورة «ق»: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(٧٨)، وفي هذه الآية، كما ترى، نقض لما يقوله اليهود من أن الله بعد أن فرغ من خلق العالم في ستة أيام أخذ استراحة(٧٩)، وكأنه سبحانه يجوز عليه النَّصَب واللُّغوب. كما حمل القرآن عليهم في سورة «الأعراف» ناعيًا عليهم تطلعهم، بعد إذ نجاهم الله من بطش فرعون، إلى عبادة الأصنام تقليدًا للوثنيين الذي رأوهم في البَرِّيَّة عاكفين على أصنام لهم(٨٠). كذلك سجّل انحرافهم عن التوحيد إلى وثنية العجل الذي صنعه السامري، أثناء غياب موسى عنهم، من الحلي التي سرقوها من المصريين وهم هاربون من مصر(٨١). وبكّتهم على تلاعبهم بما أمرهم الله أن يقولوه عند دخولهم باب القرية التي طُلب إليهم أن يسكنوها مما جلب عليهم الرِّجْز من السماء(٨٢). وفوق ذلك فقد أشار القرآن الكريم في العصر المكي إلى ما كان بين بني إسرائيل من اختلافات، مبينًا لهم أن الله

(٧٧) إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٩. وهناك نصان آخران يذكران إسماعيل بين ذرية إبراهيم عليهما السلام. انظر الآية ٨٥ من سورة «الأنعام»، والآيات ٥٤ ـ ٥٨ من سورة «مريم».

(٧٨) ق: ٣٨.

(٧٩) تكوين/٢/١ ـ ٣.

(٨٠) الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠.

(٨١) الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٢، وطه: ٨٣ ـ ٩٨.

(٨٢) الأعراف: ١٦١– ١٦٢.

يقضي بينهم بحُكْمه[٨٣]، علاوة على ذكره أن التوارة والإنجيل يتضمنان البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام[٨٤]. وحتى صيام يوم عاشوراء الذي يطنطنون به ويقولون إن محمداً صامه مع اليهود تقرباً إليهم قد قال الرسول لليهود عند حضه المسلمين على صيامه: «أنا أحق بموسى منكم»[٨٥]، مما يدل على احتقاره لهم ورأيه السيئ فيهم. وفي نص من نصوص الوحي المكي نقرأ قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلوات الله عليه وسلامه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾[٨٦]. فالربط بين الإسلام وملة إبراهيم كان موجوداً منذ العصر المكي، وهذا يصك دعوى المستشرقين ويدمرها تدميراً. أما اتجاهه عليه السلام في الصلاة إلى بيت المقدس فحاصل الأمر فيه أنه عليه السلام كان يولي وجهه أثناء الصلاة في مكة نحو الكعبة وبيت المقدس كليهما، ثم لما هاجر إلى المدينة كان يستقبل بيت المقدس وحده، إذ لم يعد الجمع بين القبلتين ممكناً، ولكنه كان يريد التحول إلى الكعبة ويتطلع إلى ذلك تطلعاً جارفاً، بيد أنه لم يشأ أن يقدم على ذلك من تلقاء نفسه، حتى نزل الوحي آذناً له بذلك. وقد عرض اليهود عليه حينئذ أن يعود إليه ويتبعوه، ولكنه عليه السلام لم يبال بهم بالة[٨٧]. فأين إذن التقرب من اليهود؟ بل من يكون اليهود الذي يدعي المستشرقون أن النبي كان منشغلاً بهم إلى هذا الحد وهم الذين عندما تكررت خياناتهم تخلص عليه السلام منهم بأسهل مما يتخلص الإنسان من حذاء له بالٍ؟ إن اليهود قد انضووا من اللحظة الأولى

(٨٣) يونس: ٩٣، والنمل: ٧٦ ـ ٧٨، والجاثية: ١٦، ١٧.

(٨٤) الأعراف: ١٥٧.

(٨٥) انظر البخاري/ مجلد ٣، والسيد سابق/ فقه السنة/ ١/٤٥١.

(٨٦) الأنعام: ١٦١.

(٨٧) ابن هشام/ السيرة النبوية/ ١/٢٦٤، ٢٩٧، والبخاري/١/١٦، والآيات ١٤٢ وما بعدها من سورة «البقرة». وانظر كتابي «مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي ٥٦ – ٥٨

لهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ضمن الطوائف التي خضعت له واعترفت به حاكمًا، مما هو مسجل في «الصحيفة» التي كتبها النبي لتنظيم العلاقة بين سكان المدينة غداة مهاجرته إليها. وهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا يجعل لهم وزنًا طوال الفترة التي عايشوا فيها الرسول هناك، إذ لم يكونوا بارعين إلا في السفاهة وطول اللسان، أما عند الجد فكانوا جِرْذاناً سرعان ما تولى أدبارها هاربة إلى جحورها، فلا تخرج منها إلا إلى المنفى أو جَزْر الرقاب الذي استحقوه بغدرهم المتكرر وخيانتهم العظمى.

ولا بد مع ذلك كله أن نعرف أن العرب قبل المبعث كانوا واعين بهذه الوشيجة التي تصلهم بإبراهيم عليه السلام، إذ تفرّق الحنفاء في البلاد يلتمسون دين أبي الأنبياء، كما أن زيد بن عمرو بن نفيل، أَحَدَ أولئك الحنفاء، كان يقول إنه يعبد الله على دين إبراهيم(٨٨).

كذلك جاء في القرآن في خطاب المسلمين من العرب تسمية الإسلام: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾(٨٩)، ولم نسمع اعتراضًا من اليهود أو غير اليهود على هذا النسب. وقد ذكر العقاد ما جاء في تاريخ ديودورس الصقلي الذي كان يعيش في القرن الأول للميلاد من أن من العرب في ذلك الزمن من كانوا ينتسبون إلى نبات ابن إسماعيل(٩٠). وقد وَجَدْتُ هذا الانتساب أيضًا في قول المهلهل في رثاء أخيه كليب إن العرب (الذين سماهم «أبناء هاجر») قد نصّبوه رئيسًا عليهم:

---

(٨٨) ابن هشام/ السيرة النبوية/ ١/٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ود. السيد عبد العزيز سالم/ تاريخ العرب قبل الإسلام/ ١/٤٣٥.

(٨٩) الحج: ٧٨.

(٩٠) العقاد/ إبراهيم أبو الأنبياء/ ٨٢. وانظر في نبات بن إسماعيل بين العهد القديم والإخباريين العرب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي ١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٨.

فقلـــد الأمـــرَ بنـــو هاجـــــرٍ منهم رئيساً كالحسام البريق[٩١]

وكذلك في شعر لشاعر جاهلي قديم هو المنذر بن خزام، جد حسان بن ثابت، وهذا نصه:

ورثنا من البهلـول عمرو بـن عامــــر وحارثة الغطريف مجـــدا مُؤَثَّـــــلا

مـآثر مـن آل ابن نبت بـن مـــــالك ونبت بن إسماعيل ما إن تحوَّلا[٩٢]

ويذكر العهد القديم نبايوت بن إسماعيل، وهو الابن البكر لإسماعيل عليه السلام[٩٣]. ويقول جورجي زيدان عن أولاد إسماعيل الاثني عشر الذين وردوا في العهد القديم، ومنهم نبايوت هذا، إن أسماءهم تطابق بعض القبائل العربية الشمالية[٩٤]. وإذا كان العهد القديم يجعل موطن إسماعيل هو بَرِّيَّة فاران في سيناء فإن التوراة السامرية، حسبما يذكر العقاد، تحدد موقع هذه البرية بأنه في الحجاز، إذ جاء فيها، كما يقول، أن إسماعيل قد «سكن برية فاران بالحجاز»[٩٥]. وينبه مولانا عبد الحق فديارتى في كتابه: «Mohammed in World Scriptures» إلى أن العهد القديم في «سفر العدد» يفرق بين سيناء وفاران، وهو ما يفيد أن فاران ليست فيها. كما يشير إلى أن بعض الكتاب من النصارى القدماء يقولون إن فاران بلد من بلاد العرب[٩٦]. ويذكر المؤرخ سوزومين أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين

(٩١) الروائع من الأدب العربي ـ العصر الجاهلي/ إشراف د. يوسف خليف/ ٨٠.

(٩٢) السمهودي/ وفاء الوفا/ ١/١٧٣.

(٩٣) تكوين/ ٢٥/١٣.

(٩٤) انظر جورجي زيدان/ العرب قبل الإسلام/ مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس/ ١٨٥.

(٩٥) انظر العقاد/ مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية/ ١٤ ـ ١٥. وقد نقله عنه د. محمد بيومي مهران في كتابه «دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب»/ ١٤٧.

(٩٦) المرجعان السابقان.

شرق الحد العربي على أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم، وأنهم من ذوي رحمهم[٩٧]. وهناك نص لتيودوريتو (Theodoritos) من النصف الأول للقرن الخامس الميلادي يصف فيه العرب بالقبائل الإسماعيلية[٩٨].

ويصف المؤرخ اليهودي يوسيفوس، الذي عاش في القرن الميلادي الأول، إسماعيل بأنه أبو العرب[٩٩]، كما يسمي ابن العبري المؤرخ النصراني العربَ «آل إسماعيل»[١٠٠].

نخلص مما سبق أن كل ما جاء في الموسوعة عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم من اليهود وأبي الأنبياء هو مجرد دعاوى مفتراة تكذبها النصوص القرآنية وغير القرآنية وكذلك الوثائق والمعطيات التاريخية.

ويفتري المستشرق هلر على القرآن الكذب إذ يزعم أن النصوص المكية المبكرة (الأنعام/٨٤، ومريم/٤٩، والأنبياء/٧٢، والعنكبوت/٢٧) تجعل من يعقوب أخًا لإسحاق بن إبراهيم[١٠١].

فلنرجع إلى الآيات الكريمة المذكورة لنرى بأنفسنا المدى الرهيب الذي ذهب إليه الكاتب في افترائه البشع. وها هي ذي على الترتيب: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا**﴾ ، ﴿**وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا**﴾، ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً**﴾، ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ**﴾ ، فأين في هذه الآيات أن يعقوب أخٌ لإسحاق؟ هل تعلق الكاتب بقوله

(٩٧) انظر د. جواد علي/ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٥١٤.

(٩٨) انظر صلاح الدين المنجد/ المنتقى من آراء المستشرقين/ ١/١٤٩.

(٩٩) انظر العقاد/ إبراهيم أبو الأنبياء/ ١٠١.

(١٠٠) السابق/ ١٠٥.

(١٠١) ٢/٦٤٠.

تعالى: ﴿وَهَبْنَا﴾ فأراد أن يوهم القراء أنها تعني أن الله وهب لإبراهيم ابنين هما إسحاق ويعقوب؟ لكن الهبة الإلهية لا تتمثل في الأبناء فقط، فقد يهب الله للإنسان حفيداً ينعش روحه في أخريات حياته، ويهب له زوجة صالحة تسعده، أو يهب له أخا باراً يكون عضدا له. ولنقرأ هاتين الآيتين اللتين استُخْدِم فيها الفعل ﴿وَهَبْنَا﴾ لغير الأبناء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ (أي موسى) مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾(١٠٢)، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ (لأيوب) أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾(١٠٣).

ولنقرأ كذلك الآيتين التاليتين، وهما مكيتان أيضاً. فها هو ذا يعقوب نفسه يقول لابنه يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ(أي جدّك القريب وجدك البعيد) إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾(١٠٤). وهذا هو إبراهيم نفسه يحمد الله على أنه رزقه على الكبر إسماعيل وإسحاق، ولم يذكر يعقوب في هذا السياق الذي يتحدث فيه عما رزقه الله من أبناء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾(١٠٥). إذن ما الذي يريده الكاتب من افترائه السمج هذا؟ إن ما يريده واضح، وهو (كما قلت وأكرر) التشكيكُ في القرآن وتنفير الغربيين منه ومحاولة إشعار القراء المسلمين الذين ليس عندهم الوقت للتحقق من افتراءات المستشرقين أن كتابهم فاقد للمصداقية لا يمكن الإطمئنان إليه، وبالتالي فهو ليس كتاباً سماوياً. لقد كان على أهل الكتاب بعد الفضائح التي كَشَفَتْها في كتابهم المقدس أقلامُ العلماء المحققين من بينهم هم أنفسهم أن يفيقوا من حقدهم على الإسلام وكتابه ورسوله ويعترفوا بالحق

---

(١٠٢) مريم: ٥٣.

(١٠٣) ص: ٤٣.

(١٠٤) يوسف: ٦.

(١٠٥) إبراهيم: ٣٩.

ويدخلوا في دين محمد. إلا أن للأحقاد التاريخية في قلوب الكفار الذين مَرَدُوا على الوثنية وضَرِيَتْ غرائزهم الوحشية بالاقتيات عليها منطقًا آخر.

ولا يكتفي المستشرق كاتب المقالة بهذا بل يضيف إليه سقطة أخرى، إذ يقول (مشيرًا إلى الآية ٦٧ من سورة «يوسف») إن يعقوب قد أمر أولاده ألا يمروا خلال بـاب[١٠٦] أي أنه، بناء على هذا الفهم المثير للضحك، كان عليهم كلما رأوا بابًا أن يعودوا أدراجهم. ولا أدري ماذا كان ينبغي أن يعملوا إذا أرادوا الدخول إلى بيوتهم؟ هل كان ينبغي أن يقفزوا إلى داخلها من النوافذ؟ أم كان عليهم أن يتسلقوا المواسير؟ حقًا أن شر البلايا ما يجعل الإنسان يضحك! إن يعقوب إنما نهى أبناءه أن يدخلوا من باب واحد. وحتى هذا لم يكن نهيًا عامًا عن الدخول من باب واحد مطلقًا أينما كانوا وفي كل الأوقات. إنما كان ذلك النهي متعلقًا بذهابهم إلى عزيز مصر لاجتلاب الميرة: ﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** ﴾.

ويقول صاحب مادة «موسى» (وهو المستشرق هلر أيضًا)، في أثناء عرضه قصة موسى في القرآن الكريم، إنه عليه السلام قد «كسر الألواح»، يقصد الألواح التي كتب الله له فيها موعظة وتفصيلاً لكل شيء عند لقائه سبحانه به[١٠٧]، مع أن القرآن لا يقول هذا أبدًا في أي موضع منه، بل الذي فيه أنه «ألقى الألواح» فـقط[١٠٨]. أما ما قاله هلر فهو الذي في العهد القديم، حيث نجد أن موسى بعد أن عاد من لقاء ربه ورأى قومه يعبدون العجل طرح اللوحين[١٠٩] فكسرهما، وأن الله جل

---

(١٠٦) ٢/٦٤٠.

(١٠٧) ٢/٤١٤.

(١٠٨) الأعراف: ١٥٤.

(١٠٩) هي في القرآن ألواح، وفي العهد القديم لوحان فقط.

جلاله قد أمره أن ينحت من الحجر لوحين آخرين ويذهب مرة ثانية للقائه سبحانه يكتب فيهما الوصايا العشر من جديد(١١٠). أما القرآن الكريم ففيه أن موسى لما سكت عنه الغضب ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ (١١١)، وهو ما يفيد أنهما لم يُكْسَرا. وقد علق، بحقٍّ، عبد الله يوسف علي، صاحب ترجمة القرآن الشهيرة إلى الإنجليزية، على زعم مؤلف سفر «الخروج» أن موسى قد حطم اللوحين اللذين يتضمنان الوحي الإلهي بقوله: «ثمة شيء من عدم الاحترام، إن لم يكن من التجديف، في الادعاء بأن رسول الله قد كسر الألواح أثناء غضبه العنيف، كما هو مذكور في العهد القديم»(١١٢).

وغلطة أخرى وقع فيها هلر فيما يتعلق بقصة موسى في كتابنا، وهي قوله إن القرآن قد ذكر أن فرعون قطع أيدي السحرة وأرجلهم من خلاف بعد أن تركوه وآمنوا بموسى(١١٣). والصواب أن كل ما ذكره القرآن هو أن فرعون قد هددهم بذلك. أما أنه قد نفذ تهديده أو لا فلم يتعرض له القرآن قط.

أما أيزنبرج، كاتب مقالة «هارون»، فهو يزعم أن القرآن يحمّل ذلك النبي الكريم النصيب الأكبر في مسؤولية صنع العجل الذهبي الذي عبده بنو إسرائيل في غياب موسى أثناء ذهابه لميقات ربه. وهو يحيل في هذا إلى الآية ١٤٨ وما بعدها من سورة «الأعراف» والآيات ٨٧ ـ ٩٤ من سورة «طه» وكذلك إلى سِفر «الخروج» (٣٢/١ ـ ٧)(١١٣).

---

(١١٠) انظر سفر «الخروج» / ٣٢/ ١٥، ١٦، ١٩، و٣٤/ ١ ـ ٢، ٤، ٢٧ ـ ٢٨.

(111) The Holy Quran translated by Abdullah Yusuf Ali, P. 385, n. 1116.

(١١٢) ٢/٤١٤.

(١١٣) ٢/١٣٤.

فأما أن ذلك في سفر «الخروج» فهو صحيح، فقد اتهم مؤلفُ ذلك السفر هارونَ عليه السلام بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل في أثناء غياب موسى عنهم، إذ جمع منهم أقراط الذهب التي في آذان نسائهم وبنيهم وبناتهم وصوَّرها بالإزميل وصنعها عجلاً مسبوكًا قائلاً لهم: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر». ثم بنى لعبادة العجل مذبحًا وطلب منهم أن يقدموا له قرابين من الذبائح، وأشرف عليهم وهم يطوفون بالعجل صائحين مغنين يرقصون عراة كما ولدتهم أمهاتهم.

لكن للقرآن كلامًا آخر في الموضوع يليق بأنبياء الله الذين اصطفاهم الله على عينه من خيرة عباده وعهد إليهم بأقدس المهمات على وجه الأرض، إذ يبرئه الله سبحانه قائلاً إن السامري هو الذي صنع ذلك العجل، وإن هارون قد حذرهم من الافتتان به وذكّرهم بالتوحيد الذي جاءهم به هو وموسى، ولكنهم كادوا يقتلونه. وهذا مذكور في الموضعين اللذين أحال عليهما مؤلف المقالة من سورتي «الأعراف» و«طه»، بيد أن جرأة المستشرقين والمبشرين على القرآن ومحمد عليه الصلاة و السلام هي جرأة لا نظير لها. ألم تر كيف يحيل المستشرق إلى ذَيْنك الموضعين من القرآن زاعمًا أن فيهما إدانة لهارون بنسبة الجزء الأضخم من مسؤولية هذا الكفر إليه، مع أن الآيات في هذين الموضعين تقول عكس ذلك تمامًا؟(١١٤)

ويتهم كاتب مقالة «فرعون» القرآن الكريم بالاضطراب قائلاً إن هامان، الذي

(١١٤) انظر كتابي «سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة»/ ٤٠ ـ ٥١، حيث يجد القارئ مناقشة مفصلة لهذه القضية كما عرضها القرآن الكريم وكاتب سفر «الخروج»، = ولما قاله كاتب مادة «السامري»، وهو المستشرق هلّر، الذي زعم في البداية أن القرآن قد حكى قصة العجل كما جاءت في سفر «الخروج» بما فيها نسبة هذه الخطيئة، ثم عاد فاستدرك قائلاً إن سورة «طه» قد نسبت ذلك إلى السامري.

يذكر القرآن أن فرعون أمره ببناء صرح لعله يطّلع بواسطته إلى إله موسى، إنما هو صدى لهامان وزير الملك أحشويروش، الذي كان يحكم من الهند إلى كوش حسب ما جاء في سفر «أستير» من العهد القديم(١١٥). يريد أن يقول إن الرسول عليه السلام لم يكن ملمًا بالتاريخ اليهودي على نحو صحيح فجعل هامان هذا وزيرًا لفرعون بدلاً من أن يكون وزير أحشويروش. وهو نفس ما قاله صاحب مادة «هامان»(١١٦).

والذي يقرأ سفر «أستير» يلحظ على الفور ما فيه من سذاجة شديدة ومَشَابِهَ جد واضحة مع ما جاء في سفر «الخروج» من كلام عن اضطهاد اليهود وتقتيلهم، وبخاصة الأطفال منهم، حتى إن الإنسان ليشك في حقيقة ما جاء فيه ويغلب على ظنه أن كاتبه قد خلط بين الأحداث والشخصيات التاريخية ونقل هامان من مصر وجعله وزيرًا لأحشويروش بدلاً من فرعون. وألوان الخلط التاريخي والأخطاء الحسابية التي وقع فيها كتبة العهد القديم مشهورة بين الباحثين أشد الشهرة.

وسنستقي بعض الأمثلة على هذا من سفر «الخروج» وحده. ومن ذلك أن كاتب هذا السفر يدعي أن أم موسى قد أمرت أخته أن تحمل التابوت الذي فيه أخوها الرضيع وتضعه على الحلفاء على شط النهر عند قصر فرعون، على حين أن القرآن يقول إن أم موسى قد ألقت تابوت وليدها في اليم. وقد فضحت تفصيلتان في رواية العهد القديم كاتبها، إذ جاء فيها أن أم موسى قد قَيَّرَتْ تابوت ابنها بالزفت والحُمَر قبل أن تعطيه لبنتها. والسؤال هو: لماذا قيَّرته على هذا النحو إذا لم تكن ستضعه في الماء؟ إن هذا الصنيع منها يصبح حينئذ عبثًا لا معنى له ولا هدف. ثم بعد أسطر نسمع ابنة فرعون تقول إنها قد انتشلت موسى من الماء. وبهاتين التفصيلتين ثبت أن ما قاله القرآن هو الحق الصراح وأن ما جاء في العهد القديم هو الباطل.

(١١٥) ١٠٧/ ١.

(١١٦) ١٣٠/١.

كذلك ففي قصة موسى (في سفر «الخروج» أيضًا) نجد كاتبها يذكر اسم حَمِي موسى في موضع على أنه «رعوئيل»، وفي موضع آخر على أنه «يثرون»، وفي سفر «العدد» (١٠/٢٩) على أنه «حوباب بن رعوئيل».

وفي تلك القصة أيضًا نقرأ كيف أن الله قد اختار موسى عليه السلام وأمره أن يلقي العصا (المعجزة) أمام فرعون عند وصوله إليه، ثم نفاجأ بعد ذلك بأن الذي قام بإلقاء العصا أمام فرعون هو هارون وليس موسى.

ويزعم كاتب ذلك السفر كذلك أن موسى كان يكلم الله وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه، ثم سرعان ما ينسى ذلك فيقول على لسان الله سبحانه بعد عدة أسطر فقط مخاطبًا موسى عليه السلام: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش».

كما يتهم كاتبُ السِّفْرِ الفاجرُ هارونَ عليه السلام بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل أثناء غياب أخيه وبني لهم مذبحًا ودعاهم إلى عبادته والصياح والرقص حوله عراة، وهو ما لا يمكن أن يكون صحيحًا، لأن هارون نبي من أنبياء الله، ولا يعقل أن يفعل نبي ذلك، و إلا لما كان لاصطفائه للنبوة أي معنى.

وهذا بعد ليس غير عيِّنة جدٍّ ضئيلة من الأخطاء التي يطفح بها سفر واحد من أسفار العهد القديم الكثيرة. ولا بأس أن نشفعها بهذه الغلطة المضحكة: ففي سفر «أخبار الأيام الثاني» أن يهورام كان عمره حين ارتقى سدة الملك اثنتين وثلاثين سنة، وظل يحكم ثماني سنوات ثم مات، وهو ما يعني أن عمره حين هلك كان أربعين سنة. لكننا بعد أقل من ثلاثة أسطر نجد أن ابنه أخزيا، الذي تولى الملك بعده مباشرة، كان عمره حينئذ اثنتين وأربعين سنة. وليس لهذا من معنى إلا أن الولد أكبر من أبيه بسنتين. أما كيف يكون ذلك فعلمه عند كاتب ذلك السفر![١١٧]

(١١٧) يُرْجَع في هذا وأمثلة أخرى من هذه الأخطاء الفاضحة إلى كتابي «سورة طه»/ ٢٨- ٥٦.

وحتى لو صدقنا ما جاء في سفر «أستير» وسلمنا أنه كان هناك فعلاً وزير لذلك الملك المسمى أحشويروش اسمه هامان(١١٨)، فإن هذا لا يسوغ اتهام القرآن بالاضطراب، إذ من الممكن جداً أن يكون هناك أكثر من هامان في بلاد وعصور مختلفة. وقد تساءل المودودي بحق: هل يمكن لمن يعترض على القرآن في هذه النقطة أن يقدم لنا قائمة بأسماء وزراء فرعون تخلو من اسم هامان؟(١١٩) ويذكر د. عبد الجليل شلبي أن اسم «هامان» قد ورد في أوراق بردية، مما يدل على أنه اسم مصري(١٢٠). ويقول محمد عزة دَرْوَزَة إن مصر كانت خاضعة لسلطان الفرس في عهد أحشويروش هذا(١٢١). فلعل اسم «هامان» إذن قد اقتبسه الفرس من المصريين، أو لعل هامان هذا مصري الأصل. وهذا إن صحت القصة طبعاً.

وفي مادة «ذو القرنين» يقول المستشرق متفوخ إن الإسكندر الأكبر مذكور في القرآن باسم «ذي القرنين»(١٢٢)، وإن قصته مأخوذة من الحكاية الدينية السريانية التي ظهرت في القرن السادس الميلادي(١٢٣).

وتعليقنا على هذا أنه لا دليل على أن القرآن قد أراد بذي القرنين «الإسكندر

---

(١١٨) انظر د. عبد الجليل شلبي/ ردّ مفتريات على الإسلام/ ١٥٨ ـ ١٥٩، حيث يشير إلى ما انتهى إليه الدارسون المحدثون من أن قصة أستير وهامان هذه كلها قصة ملفقة، وأن «هامان» العهد القديم هو شخصية وهمية.

(119) Maududi, The Meaning of the Qur' an, Vol. IX, P. 74.

(١٢٠) انظر د. عبد الجليل شلبي/ رد مفتريات على الإسلام/ ١٥٨.

(١٢١) محمد عزة دروزة/ تاريخ اليهود من أسفارهم/ ٢٨١ (بالهامش). وهو يرى أن اسم هامان محرف عن «آمون». وبمثل هذا يقول محمد حميد الله في تعليقه على الآية ٣٨ من سورة «القصص» (انظر ترجمته للقرآن إلى الفرنسية: «Le Saint Coran»).

(١٢٢) ١/٧٦. وانظر كذلك ١/٦٣٧/ مادة «يأجوج ومأجوج».

(١٢٣) ١/٧٦.

الأكبر». إنما ذلك رأيٌ واحدٌ من آراء المفسرين، وهو مجرد اجتهاد من جانبهم. فالقول بأن القرآن يقصد الإسكندر الأكبر هو كلام غير علمي يدخل في باب الافتراء، الذي يجب أن يتورع عنه العلماء.

ومثله الادعاء بأن مصدر القصة القرآنية عن ذي القرنين هو الحكاية السريانية المشار إليها. ذلك أن اليهود هم الذين أوعزوا إلى مشركي قريش أن يَتَحَدَّوا الرسول عليه السلام بسؤاله بعض الأسئلة التي حسبوا أنه سيعجز عن الإجابة عليها، وكان من بين هذه الأسئلة السؤال عن ذي القرنين(١٢٤). وبداية الآيات التي تروي قصته تقول هذا بصريح العبارة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾. فالرسول إذن لم يَرْوِ هذه القصة من تلقاء نفسه حتى يدعي كاتب المادة أنه قد استقاها من مصدر سرياني أو غير سرياني. إنما قد سئل عليه السلام فأجاب. ولو كان يمتاح القرآنَ من كتب أهل الكتاب ما تحدَّوْه بمثل هذا السؤال، الذي كان من السهل عليه ما دام يرجع إلى كتبهم أن يجيب عليه. لكن توجيههم هذا السؤال له هو دليل على أنهم كانوا متأكدين أنه لا علم له بكتبهم، فهم من أخبث خلق الله، ولا يمكن أن يضعوا أنفسهم في حرج فاضح كهذا. وكذلك المشركون لو كانوا صادقين في اتهامه عليه السلام بأنه ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾(١٢٥) ما قبلوا أن يطرحوا عليه هذا السؤال الذي يزعم الكاتب أن الرسول قد استقى الجواب عليه من مصدرٍ كتابيّ، إذ من الطبيعي أن يتوقعوا آنذاك معرفته به.

وللدكتور إسرائيل ولفنسون (وهو يهودي) كلام يؤيد ما نقوله، إذ يؤكد «أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود، إذ لو وُجد منهم أحد في مكة ما أوفد قريش وفدهم إلى

(١٢٤) انظر في سبب نزول هذه الآية «أسباب النزول» للسيوطي.

(١٢٥) النحل: ١٠٣.

المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبي، وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم»[126].

وطامَّةٌ أخرى نجدها في مادة «سليمان»، وهي أن الإسكندر الأكبر مذكور في القرآن مع سليمان على أنه رسول من رسل الله ونموذج أصلي لمحمد[127].

أين هذا في القرآن؟ بل أين الإسكندرِ الأكبر فيه أصلاً؟ وحتى لو تابعنا كاتب مادة «ذو القرنين» في أن ذا القرنين هو الإسكندر، فهل في القرآن أن ذا القرنين كان رسولاً؟ إن آيات سورة «الكهف» التي تتحدث عن ذي القرنين معروفة للكافة، والجميع يعلمون أنه ليس فيها شيء من هذا على الإطلاق. ولكن الجراءة الاستشراقية، كما ينبغي أن نفهم، هي جراءة من نوع عجيب.

ويعتسف كاتب مقالة «داود» النصَّ القرآني فيزعم أن القرآن، في الآية ٢٦ من سورة «ص»، قد سمى داود عليه السلام «خليفة الله»[128]، مع أن الآية تقول: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، بإطلاق كلمة «خليفة». فالادعاء إذن بأنه في القرآن «خليفة الله» هو ادعاء لا يجد له مستنداً في نص الآية.

وجاء في المادة ذاتها أن الآية ٧٩ من سورة «الأنبياء» والآية ١٠ من سورة «سبأ» والآية ١٨ وما بعدها من سورة «ص» تشير إلى أن الجبال والطير كُنّ يتبادلن الغناء مع دواد[129]. والذي في القرآن هو أنها كانت تسبّح معه وتؤوّب، أما تبادلها الغناء معه فليس له فيه وجود[130].

---

(١٢٦) د. إسرائيل ولفنسون/ تاريخ اليهود في بلاد العرب/ ٩٨.

(١٢٧) ٢/٥٤٩.

(١٢٨) ٧٢/١/ مادة «داود».

(١٢٩) ٧٢ /٢.

(١٣٠) وفي الترجمة العربية (٣٦٧/١ /٢): «وكانت الجبال وكذلك الطير تسبح معه إذا =

ويقول نفس المستشرق إنه بالجمع بين الآية ٧٨ وما بعدها من سورة «المائدة» والآية ٦٥ من سورة «البقرة» نعرف أن داود قد عاقب الذين اعتدوا في السبت بمسخهم قِرَدَة(١٣١). فلنورد الآيات المذكورة لنرى مدى صدق الكاتب:

تقول الآية ٧٨ وما بعدها من سورة «المائدة»: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾، فهل في هذه الآيات ما يشير بأي حال إلى شيء مما يقول المستشرق؟ هل في الآية أي كلام عن المعتدين في السبت ومسخهم قردة، فضلاً عن أن يكون الماسخ هو داود؟(١٣٢)

أما آية سورة «البقرة» فهي فعلاً تتحدث عن المعتدين في السبت، ذاكرة أن الله قد أمرهم أن يكونوا قردة خاسئين: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾، لكن ما علاقة ذلك بالآية ٧٨ وما بعدها من سورة «المائدة»؟ بل ما علاقته بداود عليه السلام أصلاً؟ وكيف واتت الكاتب المقدرة على الزعم بأن داود هو الذي مسخهم قردة؟ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه.

وفي مادة «بلقيس» نقرأ أن القرآن قد ذكر أن الذي أتى لسليمان بعرشها

= سبّح». وليست هذه عبارة الأصل، فقد حولها المترجم بحيث تتسق مع ما في القرآن، وأرى أنه كان ينبغي عليه أن يترجم الأصل كما هو ويشير في الهامش إلى مخالفته لما جاء في القرآن.

(١٣١) ٢/٧٢. مادة «داود».

(١٣٢) في سورة «المائدة» نفسها آية أخرى (هي الآية ٦٠) تتحدث عن فريق من بني =

عفريت من العفاريت(١٣٣). ومن يراجع القرآن يتبين له خطأ هذا الكلام، فقد عرض عفريت الجن على ذلك النبي أن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مقامه، لكن ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(١٣٤)، ثم وجده سليمان مستقراً عنده. فالقرآن إذن لم يقل إن الجني هو الذي أحضر العرش، بل المفهوم والمنسجم مع المنطق أن يكون سليمان قد سمح للذي عنده علم من الكتاب أن يأتيه به ما دام عرضه هو العرض الأفضل.

وبالنسبة لسليمان عليه السلام نفسه نقرأ في المقالة المُعَنْوَنَة باسمه أنه «لبعض الوقت قد انزلق فيما يبدو إلى عبادة الأوثان، فعوقب على ذلك بفقدان ملكه وجلوس شخص آخر يشبهه على عرشه. ثم لما سأل ربه المغفرة أُعيد إلى عرشه مرة أخرى ووُعد برضا الله والجنة». وقد أحال الكاتب في ذلك على الآيات ٣٤، ٣٥، ٤٠ من سورة «ص»(١٣٥)، وها هي ذي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾، فهل يرى فيها أحد أن

= إسرائيل جعله الله قردة وخنازير، ونصها: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾، ولكن ليس فيها ذكر لداود. كما أنها لا تشير إلى المعتدين في السبت. وفضلاً عن هذا وذاك فقد امتُسخ هذا الفريق الملعون المغضوب عليه قِرَدَةً وخنازير، لا قردة فقط، والذي مسخهم هو ربهم وليس أحداً من البشر.

(١٣٣) ٦٣ /١.

(١٣٤) النمل: ٤٠.

(١٣٥) ٥٥٠ / ١.

سليمان «قد انزلق فيما يبدو إلى عبادة الأوثان»؟

لكن لماذا قال المستشرق ووكر ذلك؟ إنه يردد هنا ما يقوله العهد القديم عن هذا النبي الكريم. جاء في «سفر الملوك الأول» في بداية الأصحاح الحادي عشر: «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: مؤابيات وعمّونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيّات، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين وملكوم رِجْسِ العمّونيين. وعمل سليمان الشرَّ في عيني الرب ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه(١٣٦). حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رِجْسَ المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رِجْسِ بنى عمّون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»، ثم يمضي كاتب السفر فيذكر أن الله قد عاقبه فمزق مملكته وأعطاها لعبده. فهذا ما يقوله ملفقو العهد القديم عن هذا النبي المصطفى. والصورة التي تطالعنا من هذا الكلام هي صورة شيخ خَرِفٍ فقد عقله وسال لعاب شهوته بحيث إن كل امرأة من نسائه اللائي يبلغن ألفا كانت تجره من أنفه كما يحلو لها وقد بَطَّلَتْ له كل إرادة، فهو يبني لكل صنم تعبده إحدى هذه الزوجات مرتفعة، ولا يكتفي بهذا بل يشاركها في عبادته. أما القرآن الكريم فإنه

(١٣٦) وهل أعفى مزيفو العهد القديم داود من الافتراء عليه؟ ألم يتهموه بالزنا والتآمر على قتل جاره أوريا ليخلو له وجه امرأته، التي زنى بها والتي تزوجها بعد أن تم له التخلص منه؟ انظر هذه القصة التي تتفوق على كل ما أنتجته هوليود من أفلام الإغراء الجنسي في «صموئيل الثاني»/ الأصحاح ١١ كله.

لا يقـول عن أنبيـاء الله ورسله إلا الحق، فـهو يثني دائمًا على نبل أخلاقـهم وعظمة نفوسهم. وكيف يكون أمر هؤلاء الأنبياء والمرسلين غير ذلك وهم إنما اجتباهـم الله واصطفاهـم وفضلهـم علـى العـالمين؟ وإذا كان الأنبياء ينزلون إلى هذا الدرك الأسفل من الكفر وفقدان الكرامة كمـا هـو الحال في العـهد القـديم، فمـا الذي يبقـى فيهـم ليكـونوا أمثلة عليـا للبشر؟

ويفسـر مؤلف مـادة «يهودي»، وهـو المستشرق سـبايـر، قولـه تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾[١٣٧] بأن الرسـول عليه الصـلاة والسـلام كان يعرف أن اليهود والنصارى ينسبون إلى إبراهيم أنه مؤلف كتب مقدسة[١٢٨]. وإنه لكلام غـريب أشـد الغرابة، إذ إن مثل هذا التفسير لا تساعد عليه أيَّةُ آية في القرآن تتعلق بإبراهيم أو بأحد غيره من الأنبياء. ولم يحدث أن قال النبي صلوات الله عليـه كلامًا يُشْتَمّ منه على أي نـحـو من الأنحـاء أنه يرى أن إبراهيم أو أي رسـول آخر هـو مـؤلف الكتـاب الذي جاء به أو يعترف بما يقوله أهل الكتاب في هذا الصـدد. وكيف يقول محمد هذا، والقرآنُ والأحاديث يجعلانه هـو نفسه واحدًا في هذه السلسلة النبيلة الكريمة التي تضم إبراهيم ومـوسى؟ ذلك أنه لو صدر عنه شيء كـهذا لكان إقرارًا منه بما كان المشركون يقرفونه به من أنه هـو صاحب القرآن وأنه تعلّمه على أيدي بشر مثله؟

ومن افتراءات كاتب المادة زعمه أن مفهوم محمد عن الإله في قوله سبحانه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾[١٣٩] يبـدو ذا أصل يـهودي صـرف[١٤٠].

(١٣٧) الأعلى: ١٩.

(١٣٨) ٦٣٨/١.

(١٣٩) المؤمنون: ١١٦ ـ ١١٨.

(١٤٠) ٦٣٨/٢.

وعبثًا يحاول الإنسان أن يعرف لماذا هذه الآيات بالذات؟ هل فيها شيء خاص يختلف عما في المواضع القرآنية الأخرى التي تتحدث عن الله عز وجل؟ إن المسلمين يؤمنون بأن هناك أنبياء ورسلاً سابقين على محمد صلى الله عليه وسلم، وأن هؤلاء الأنبياء قد أتوا بمثل ما أتى به محمد في ميدان العقيدة بالذات. ومن ثم فإذا وجدنا تشابهًا بين القرآن والتوراة والإنجيل فذلك أمر طبيعي ما دام المصدر واحداً، وهو وحي السماء. أما إذا كان هناك تناقض فإن ذلك يعود إلى تحريف اليهود والنصارى للوحي المنزل على موسى وعيسى. ولا يصح أن يقول قائل: ولماذا لا يكون القرآن هو الذي حُرِّف؟ فالجواب حاضر، وهو أن أحداً لا يستطيع أن يثبت هذه الدعوى، بل الثابت المقطوع به هو عكسها تماما، فضلاً عن أن الباحثين المحققين في الغرب والشرق قد انتهوا إلى فقدان الثقة بما يسمى بالكتاب المقدس كما أشرنا مراراً في هذا البحث.

وعن الآية ٧٦ من سورة «الإسراء»، ونصها: ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا** (٧٦) ﴾ ، يقول الكاتب أيضا إن من الممكن أن يكون اليهود هم المقصودين بهذه الآية(١٤١). وهو تفسير غير مقبول، فإن الذين كانوا يعملون على إخراج الرسول عليه السلام من الأرض هم مشركو قريش، وهم الذين حقت عليهم الآية الكريمة فلم يلبثوا خلف الرسول بعد هجرته إلا قليلاً، إذ ما هي إلا شهور حتى وقعت غزوة بدر، التي جُندل فيها سبعون من صناديدهم، ثم لم تكن إلا عدة سنوات أخرى حتى وجدنا مكة تفتح له صلى الله عليه وسلم ذراعيها ويؤمن به القرشيون جميعًا بعد أن سُدَّت في وجوههم كل السبل وفشلت مساعيهم في الإضرار بالإسلام ومحاولة إطفاء نوره الوهاج. أما في المدينة فقد كان الإسلام هو الذي أخرج اليهود من البلاد التي أتوها ضيوفًا مطرودين

(١٤١) ٦٣٨ /٢.

وانتهى بهم الأمر إلى نسيان اليد التي مدها إليهم أهل يثرب فأخذوا يتآمرون على الدين الجديد الذي دخل فيه اليثربيون ويجهدون في هدمه وقتل نبيه. ومن هذا وذاك يتبين لنا أن اليهود لا يمكن أن يكونوا هم المقصودين بالآية. إنهم أذل وأخزى من أن يقول القرآن عنهم إنهم كادوا يستفزون الرسول من الأرض. وبالمناسبة، لقد ترجم المستشرق الفعل «استفزّ» إلى «to induce»، ومعناه: «يستميل ويغري» وليس «يستفزّ».

صحيح أنه جاء في بعض روايات أسباب النزول أن يهود المدينة قد أغروه بأن يلحق بالشام لأنها، كما قالوا، هي أرض الأنبياء ومنها يكون الحشر، وأن الرسول عليه السلام صدَّقهم وغزا غزوة تبوك يريد الشام، وأنه لما بلغ تبوك أنزل الله هذه الآية من سورة «الإسراء» وأمره أن يرجع إلى المدينة(١٤٢). لكن هذه الرواية تكذِّب نفسها بنفسها، إذ إن اليهود كانوا قد انتهوا من المدينة قبل تبوك إما بالإجلاء وإما بالقتل لخيانتهم العظمى للدولة. ثم إن حوادث غزوة تبوك معروفة، ولا صلة بينها وبين إغراء اليهود المزعوم للنبي عليه السلام. ومعروف أن الرسول بعد أن وصل إلى تبوك كتب كتبًا لبعض الولاة هناك وعاد أدراجه إلى المدينة(١٤٣). ولو كان يريد الشام ما رجع بل مضى قدمًا حتى يبلغها. لقد خرج الرسول بناء على ما شاع من أخبار عن أن الروم ينوون غزو المسلمين، فلما وصل تبوك ولم يجد الجيش الروماني عاد من حيث جاء(١٤٤). وقد قلنا قبل قليل إن «استفزّ» ليس معناها «استمال وأغرى»، واليهود

(١٤٢) انظر هذه الرواية والرواية الصحيحة التي تنسب ذلك الاستفزاز إلى مشركي مكة في «أسباب النزول» للنيسابوري / ٢١٩، ٢٢٠.

(١٤٣) ابن هشام / السيرة النبوية/ تحقيق السقا و الإبياري وشلبي/ ٢/٥٢٥، ٥٢٦.

(١٤٤) انظر د. محمد حسين هيكل / حياة محمد/ ٤٥٨، ٤٥٩، وأحمد إبراهيم الشريف/ مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول/ ٥٣٩. وانظر أيضًا: Ameer Ali, the =

على حسب هذه الرواية المرفوضة إنما أرادوا استمالته وإغراءه، فلا يقال إنهم كادوا يستفزونه. وهل يمكن أن يصدق عاقل أن النبي عليه السلام يمكن أن يُسْلِم قياده بهذه الصورة لليهود؟ أو هل يمكن أن يُقْدِم الرسول صلوات الله عليه على ترك المدينة إلى بلد آخر دون أمر السماء؟ إنه لم يقدم على الهجرة إلى يثرب إلا بعد أن أوحى الله إليه بذلك. فلو أن الرسول قد أقدم على هذا دون أمر من السماء لكان القرآن قد نزل يعاتبه. فأين مثل ذلك النص في القرآن؟ ثم إن الآية ٣٠ من سورة «الأنفال»، التي تتحدث عن مكر المشركين في مكة لإثباته (أي سجنه) أو قتله أو إخراجه، تعضد توجيه الآية الذي نأخذ به.

وفي المادة المخصصة لـ «الإنجيل» يقول كاتبها إن في كلام القرآن عن الإنجيل خلطًا مَنْشَؤُه أنه في بعض مواضعه يتحدث عن الإنجيل بوصفه كتابًا أنزل على عيسى، وذلك في الآيتين الرابعة والستين من سورة «المائدة» والسابعة والعشرين من سورة «الحديد»، ولكنه في بعض المواضع الأخرى (المائدة/ ٤٦، والأعراف/ ١٥٧) يقصد به الكتاب الذي في أيدي النصارى المعاصرين له[١٤٥]. فأما النصان الأولان فهما قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ (أي عيسى) **الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦)**﴾، وقوله عز شأنه: ﴿**وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ**﴾، وهذان النصان لا يمثلان مشكلة ولا يبعثان على الخلاف بيننا بين المستشرق صاحب المادة. إنما المشكلة في دعواه أن الإنجيل في قوله تعالى: ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ**﴾، وقوله عز وجل (في حق من يستحقون رحمته سبحانه): ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ**

= Spirit of Islam, p. 104, and Afzalur Rahman, Encyc - lopaedia of Seereh, Vol. III, p.641.»

(١٤٥) ٢/١٦٨.

مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ هو الإنجيل الذي كان في أيدي النصارى المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم. ذلك أنه ليس في هاتين الآيتين ما يصدّق تلك الدعوى. ولو كان المقصود بالإنجيل فيهما ما كان في أيدي معاصريه من النصارى لقيل: «الأناجيل»، فالنصارى ليس لهم إنجيل واحد بل أربعة أناجيل(١٤٦). وبالمناسبة فإن الذي كان بأيدي النصارى المعاصرين للرسول ولا يزال بأيدي أخلافهم (نقصد الذي يعلنونه للناس) ليس هو الإنجيل الذي نزل من السماء على عيسى عليه السلام، بل هو كُتُبٌ كُتِبَتْ بعد رفع الله إياه إليه بزمن طويل ولم يُعَوِّل فيها أصحابها على نصوص مكتوبة(١٤٧)، وإنما اعتمدوا في تأليفها على ذاكرتهم وتأثروا فيها بأهوائهم وما أرادوا أن يبثّوه في الناس من عقائد وآراء، فجاء كل إنجيل منها ملونًا بلون شخصية الكاتب، بالإضافة إلى ما فيه من أخطاء ومتناقضات. باختصار: إن الأناجيل الحالية ليست هي الوحي السماوي، بل هي كتب في سيرة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيها الغُثَاء وفيها بعض الحقائق التاريخية مع طائفة من الأقوال المنسوبة له والتي يمكن أن يكون بعضها مما أوحى به إليه. وإني لا أستبعد أن يكون الإنجيل الحقيقي الذي أُنْزِل على عيسى عليه السلام موجودًا عند بعض كبار دينهم ولكنهم يكتمونه، أو على الأقل كان موجودًا بأيديهم أيام بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. ويغلب على ظني أن القرآن كان يقصد أن يُخْرِج أولئك الرؤساء ما يخفونه عن العامة ويرجعوا إليه،

(١٤٦) نقصد الأناجيل التي يعلنون أنهم يعترفون بها، وإلا فهناك أناجيل أخرى على ما هو معروف، كإنجيل برنابا وإنجيل يعقوب وإنجيل نيقوديم وإنجيل السبعين وإنجيل العبريين وإنجيل الاثنى عشر وإنجيل المصريين وإنجيل الطفولة وغير ذلك.

(١٤٧) هذا الكلام ليس من عندنا بل هو ما يقوله النصارى أنفسهم لا يخالف أحد منهم فيه.

ففيه ما يذكره القرآن من الأحكام التي يأمرهم بتنفيذها والبشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم التي ينبغي أن ينزلوا على مقتضاها فيعلنوا إيمانهم به وينضووا في دينه.

فهذا عن الإنجيل، أما عن عيسى عليه السلام فإن المستشرق ماكدونالد يقوّل القرآن بشأنه ما لم ينزل الله به سلطانًا، إذ يحاول أن يوهمنا (في المادة التي كتبها عن «عيسى») أن القرآن يربط بين عيسى عليه السلام والملائكة مصوِّرًا إياه في صورة «شبه ملاك: semi angel». وهو في هذا يسوق شبهتين: الأولى أن القرآن قد وصفه بأنه روح من الله(١٤٨)، والثانية أنه جعله ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(١٤٩). وكلا الأمرين خاص بالملائكة كما يقول(١٥٠).

فأما بالنسبة للشبهة الأولى فيدحضها أن نقرأ قوله تعالى عن آدم: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾(١٥١)، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(١٥٢). فالأمر واحد في الحالتين، إذ كلاهما روح من الله. والسبب هو أن عيسى لم يكن له أب فجاء بغير نطفة مثلما هو الحال مع آدم. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١٥٣). كل ما في الأمر أن عيسى خُلق داخل بطن أمه، أما آدم فلم تكن له بطبيعة الحال أم تحمله في بطنها، لكن كليهما مع ذلك خُلق بأمر الله المباشر. فالروح كما ترى لا تُطلق بالضرورة على الملائكة كما يحاول ماكدونالد أن يوهمنا، إذ أُطلقت

(١٤٨) وذلك في سورة «النساء»: ١٧١.

(١٤٩) آل عمران: ٤٥.

(١٥٠) ١/١٧٣ ـ ٢، و١٧٤ /٢. وانظر كذلك ٣١٨ /٢/ مادة «الملائكة».

(١٥١) السجدة: ٩.

(١٥٢) الحجر: ٢٩، وص: ٧٢.

(١٥٣) آل عمران: ٥٩.

هنا على نفخة الخلق. كما أن لها في الآية التالية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(١٥٤) معنى ثالثًا هو القرآن الكريم. فوصف عيسى عليه السلام إذن بأنه «روح منه» لا يخرجه عن البشرية بحال. وكيف يقصد القرآن أن يخرجه عن البشرية وقد وصفه بأنه كان يأكل الطعام(١٥٥)، وكرر تسميته «ابن مريم»(١٥٦)، وأكد أنه رسول(١٥٧)، والرسل بنص القرآن لا يمكن أن يكونوا إلا بشرًا ولا يجوز أبدًا أن يكونوا من جنس الملائكة؟(١٥٨)

وأما بالنسبة للشبهة الثانية فإن القول ليس كما قال الكاتب، فالقربى ليست وصفًا مقصورًا على الملائكة في القرآن الكريم حتى يتخذ ذلك المستشرق من وصف عيسى عليه السلام فيه بأنه ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ دليلاً على أنه شبيه بالملائكة. لقد جاء في القرآن عن موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)﴾(١٥٩)، وقال الله لرسوله صلوات الله عليه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩)﴾(١٦٠)، وقال تعالى عن المؤمنين الذين يخرجون الصدقات: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾(١٦١) كما أن صفة ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الأوصاف التي وصف بها القرآن عدة مرات طائفة من أهل الجنة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)

(١٥٤) الشورى: ٥٢.

(١٥٥) المائدة: ٧٥.

(١٥٦) وذلك في ستة عشر موضعا منه.

(١٥٧) النساء: ١٥٧، ١٧١، والمائدة: ٧٥.

(١٥٨) الأنعام: ٨ – ٩، والإسراء: ٩٥.

(١٥٩) مريم: ٥٢.

(١٦٠) العلق: ١٩.

(١٦١) التوبة: ٩٩.

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾[١٦٢]، ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١٦٣]، ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[١٦٤]، ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[١٦٥]، أما الملائكة فلم يوصفوا بـ ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾ إلا مرة واحدة. وحتى في هذه المرة الوحيدة نجد أنهم ذُكِروا مع صفتهم (هكذا: «الملائكة المقربون»)[١٦٦]، ولم يُقَلْ: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ فقط كما هو الحال مع من وُصِفَ بها من البشر.

على أن ذلك ليس كل ما في جَعْبَة الكاتب ليخرجه لنا في مقالته هذه، فقد اتّهم أيضًا القرآن بالتناقض في موضوع موت عيسى عليه السلام، إذ يقول إن الرسول قد نفى أن يكون عيسى قد صُلب و أثبت له الرفع إلى السماء[١٦٧]، على حين أنه أيضًا يشير إلى موته في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[١٦٨]، وفي الآية ٣٣ من سورة «مريم»: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾، التي لا تفوته عندها طبيعة كثير من المستشرقين والمبشرين فيحاول أن يحقن القارئ حقنة من الشك السامّ فيها قائلاً إنها قد تكون تكرارًا بطريق الخطإ للآية الخامسة عشرة من نفس السورة (يقصد قوله تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾)[١٦٩].

(١٦٢) الواقعة: ١٠-١١.

(١٦٣) الواقعة: ٨٨ – ٨٩.

(١٦٤) المطففين: ٢٠ – ٢١.

(١٦٥) المطففين: ٢٧ – ٢٨.

(١٦٦) النساء: ١٧٢.

(١٦٧) النساء: ١٥٧.

(١٦٨) النساء: ١٥٩.

(١٦٩) مريم: ٣٣.

ونبدأ بمسألة التكرار هذه. وهي كما نرى، مجرد ادعاء لم يقدم الكاتب، ويستحيل أن يقدم، دليلاً عليه. وإن الإنسان ليتساءل: لماذا التشكيك في هذه الآية وحدها بسبب التكرار والآية التي قبلها مثلها، ونصها: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، وهو يشبه إلى حد كبير نص الآية السابقة على الآية الخاصة بيحيى عليه السلام، وهي: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ⑭﴾؟ وبالإضافة إلى هذا فإننا نجد أن عيسى عليه السلام قد تحدث في المهد «صبيًا»(١٧٠)، قائلاً إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيًا، مثلما قيل عن يحيى قبل ذلك في السورة ذاتها: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ⑫﴾(١٧١). فالمعنى كما ترى متقارب هنا وهناك، والفاصلة هي هي عينها. وأخيرًا فلو كان هذا تكرارًا بطريق الخطإ ما تغير الضمير من الغائب في الآية الخاصة بيحيى إلى ضمير المخاطب في الآية الخاصة بعيسى.

أما التناقض الذي يدعيه الكاتب على القرآن في موضوع موت عيسى كما قال فبدون الدخول في اختلافات المفسرين بشأن رفعه عليه السلام (أقد رُفِع بالجسد أيضًا أم بالروح فقط؟ وهل التوفي الوارد مع الرفع في الآية ٥٥ من سورة «آل عمران» هو توفي الموت أوْ لا؟) وبشأن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (أهو عائد إلى عيسى عليه السلام أم إلى من يموت من أهل الكتاب؟) فإنه يكفي أن نحيل إلى ما قاله بعد ذلك المستشرقُ ذاتهُ في النهر ذاته من الصفحة ذاتها من أن المفسرين المسلمين قد ذكروا أن موت عيسى إنما سيكون بعد مجيئه الثاني. وعلى هذا فلا تناقض كما أشار هو نفسه. إذن فلماذا كل تعب القلب هذا وإثارة عواصف التشكيك وغباره إذا كان سيهدم كل ما قاله في نهاية المطاف؟

(١٧٠) مريم: ٢٩.

(١٧١) مريم: ١٢.

وقبل أن نترك موضوع عيسى عليه السلام أود أن أشير إلى ما قاله كاتب مادة «المسيح» (وهو بصدد استبعاد أن تكون كلمة «المسيح» علَما) من أن الأسماء الأعجمية في القرآن الكريم لا تدخل عليها «أل» التعريف[١٧٢]. وجوابي هو: هلاّ ذكَر «اليسع» و«السامري»، و«التوراة» و«الإنجيل» مثلاً، وهي أعلام أعجمية؟ ثم أليس من زملائه من يقول بأعجمية «الفردوس»[١٧٣] و«المدينة (يثرب)»[١٧٤] مثلاً وهما علَمان معرّفان بـ «أل»؟ فكيف لم يتنبه واضعو الموسوعة إلى ذلك التناقض ويعملوا على إزالته، فإما أن يرجعوا عن القول بأعجمية هذه الأسماء وأمثالها وإما أن يرجع هو عن تعالمه ودعواه المتسرعة؟

وفي مقالة «يحيى» يدعي كاتبها أنه قد ورد في القرآن أن يحيى عليه السلام قد تكلم في المهد[١٧٥]. وهذا غير صحيح أبدًا، فليس في القرآن شيء من هذا على الإطلاق. كما يقول الكاتب أيضًا إن القرآن والكُتّاب المسلمين يسمُّون النصارى أتباع يحيى عليه السلام بـ «الصابئة»، ويجعلون لهم كتابًا، وينسبونهم مع ذلك لنوح لا ليحيى[١٧٦]. والذي يهمنا هنا هو ادعاؤه وجود هذا كله في القرآن. والحقيقة أنه ليس فيه شيء من ذلك البتة، فليس في القرآن كلمة «الصابئة»، بل استُعْمِلَتْ «الصابئون» دائمًا في المرات الثلاث التي ذكروا فيها. وهو لا ينسبهم إلى نوح ولا إلى يحيى ولا إلى أي نبي أيا كان. وكذلك لا يذكر لهم كتابًا ولا يحدد علاقتهم باليهود أو النصارى. إن هذا كله من اختراع الكاتب! ونتحدى أي إنسان أن يدلنا

(١٧٢) ٢/٣٦١.

(١٧٣) ١/٨٨(حيث قيل إنها فارسية)، و١/١٠٨ (حيث قيل بيونانيتها).

(١٧٤) ١/٢٩١/ مادة «المدينة»، التي يزعم كاتبها أن هذه الكلمة ذات أصل آرامي.

(١٧٥) ١/٦٤٠.

(١٧٦) ٢/٦٤٠.

على موضع أي شيء من ذلك في القرآن الكريم.

وفي مقالة «مريم» نجد صاحبها يجهد نفسه في إثبات أن القرآن قد أخطأ حين جعل النصارى يتخذون من مريم إلهًا(١٧٧)، إذ قال إن الرسول عليه السلام ربما تأثر في تصوره ذاك بما توليه الكنيسة لمريم من تبجيل، أو ربما كان ذلك منه استنتاجًا أساسه خلطه بين عيسى والروح القدس، مما ترتب عليه خلو موضع من المواضع في الثالوث بَدَتْ مريم له جديرة بشَغْله(١٧٨).

وقد يظن القارئ أن كاتب المادة قال ذلك لأنه ينفي أن يكون النصارى قد جعلوا مريم أحد أقانيم الثالوث في يوم من الأيام وعبدوها. لكنه سيفاجأ حين نقول له إن الكاتب، على العكس من ذلك، يعترف بأنه كان هناك فعلاً من يعبدون مريم ويتخذونها إلهًا، جاعلين منها أقنومًا من أقانيم الثالوث(١٧٩). إذن فلماذا يجهد نفسه كل هذا الإجهاد في محاولة إيهام القراء بأن الرسول عليه الصلاة والسلام حين أشار إلى تأليه فريق من النصارى لمريم لم يكن يعرف أن هناك من النصارى من يصنع ذلك فعلاً بل كان ذلك خطأ منه في الاستنتاج والتفكير؟ أليس هذا دليلاً على أن أولئك المستشرقين يدخلون على القضايا التي يعالجونها وقد بيتوا النية على تخطئة الرسول والقرآن والإسلام بكل وسيلة مهما بدا عوارها وسخفها؟ ألم يكن أجدر بهذا المستشرق أن يثني على الرسول عليه السلام ويمدحه بما هو أهله لقاء دعوته إلى التوحيد النقي وحملته على الوثنية الغليظة القبيحة المتمثلة في التثليث؟ إن

(١٧٧) كما جاء في الآية ١١٦ من سورة «المائدة» مثلاً.

(١٧٨) ١/٣٢٨، ٢.

(١٧٩) ٣٢٨ /٢. وبالمناسبة فهناك من المستشرقين والمبشرين من ينكر أنه كان بين النصارى من يؤلهون مريم ويعبدونها. وقد رددت على هؤلاء بالأدلة القاطعة في كتابي «نظرة إسلامية في الموسوعة العربية الميسرة»/ ص ٩٠ وما بعدها.

صنيع الكاتب لهو علامة علي التواء الضمير وخبث الطوية والجرأة الوَقّاح على الحق. إن روح القدس في القرآن متميّز تمامًا عن عيسى، بل لقد تكرر فيه القول بأن الله سبحانه قد أيده به(١٨٠)، فكيف يجرؤ إنسان على الادعاء بأن الرسول يمكن أن يكون قد خلط بينهما؟

ويمضي كاتب المادة فيخطّئ القرآن في تسميته والد مريم «عمران»، مرجعًا هذا إلى الخلط بينه وبين والد موسى بسبب مناداتها في القرآن بـ ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾(١٨١). يريد أن يقول إنه لما كان القرآن يسميها «أخت هارون»، وكان هارون هو أخا موسى، وكان موسى هو ابن عمران، فقد جعل القرآن مريم ابنة عمران، على حين أن اسم أبيها عندهم «يواقيم».

ولعل بعض القراء المسلمين يحيك في صدورهم شيء من هذا مبعثه استبعاد أن يخطئ أهل الكتاب في أسماء مشاهيرهم وأنسابهم. لكن لا بد أن نعي جيدًا أن ما يسمى بـ «الكتاب المقدس» غير جدير بالثقة: لا من ناحية وقائع التاريخ وشخصياته وأسمائها ولا من ناحية الحساب والأعداد والسنين والتقاويم ولا من ناحية العقيدة والحديث عن الله والأنبياء، وأن نعرف أنه مكتوب من الذاكرة بعد مئات السنين في حالة العهد القديم، وبعد عشراتها بالنسبة للعهد الجديد، ولم يصل إلينا، كما وصل القرآن، نصا مكتوبًا منذ البداية ومحفوظًا أيضًا في الصدور. وقد انتهى البحث العلمي عند أهل ذلك الكتاب إلى فقدان الاطمئنان إليه مما أشرنا إليه فيما مرّ من صفحات.

وفي مسألة أنساب الأشخاص وأسمائهم نجتزئ بمثالين اثنين ليس غير للتدليل على أن «الكتاب المقدس» ليس أهلاً للاعتماد عليه في هذه المسائل أيضًا:

(١٨٠) البقرة: ٨٧، ٢٥٣، والمائدة: ١١٠.

(١٨١) مريم: ٢٨.

فأما المثال الأول فهو خاص باسم حَمِي موسى، الذي يذكر له سِفْرُ «الخروج» اسمين هما: «رعوئيل» و«يثرون»[182]، ثم لا يكتفي مؤلف سفر «العدد» بهذا فيضيف اسمًا ثالثًا. ويا ليته وهو يفعل ذلك قد تذرع بشيء من الحنكة فلم يجعله ابن نفسه. ذلك أن اسمه في ذلك السفر هو، كما مرّ بنا، «حوباب بن رعوئيل»[183]. أما كيف يكون الشخص هو نفسه وابن نفسه في كتاب واحد (ومقدس أيضًا!) فهذا أمر يُسأل عنه أهل الكتاب، الذين بدلاً من أن يستحوا ويتواروْا خزيًا يجدون في أنفسهم الجرأة على تخطئة القرآن الكريم.

وأما المثال الثاني فنأخذه من افتتاحية الأصحاح الأول من إنجيل متى، حيث ورد نسب عيسى عليه السلام على النحو التالي: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم. إبراهيم وَلَدَ إسحاق، وإسحاق وَلَد يعقوب، ويعقوب وَلَد يهوذا وإخوته...» وهكذا حتى نصل بعد تسعة أسطر إلى قوله: «وأليعازر وَلَد متّان، ومتّان وَلَد يعقوب، ويعقوب وَلَد يوسف رجل مريم، التي وُلد منها يسوع، الذي يُدْعَى المسيح». وإن العقل ليتساءل في حيرة محبطة: كيف تكون هذه سلسلة نسب عيسى وهي لا تؤدي إليه ولو عن طريق أمه، بل إلى زوجها يوسف النجار؟[184] ثم كيف يكون المسيح ابن الله كما يزعمون، وكاتب الإنجيل يجعله ابن داود بن إبراهيم؟ وقد ذكر لوقا أن المسيح نفسه اعترض على نسبته لداود[185]. ثم إن مؤلف ذلك الإنجيل

(١٨٢) خروج / ٢/١٨، و٣ /١، و١٨/٤.

(١٨٣) عدد / ١٠ /٢٩.

(١٨٤) هناك سلسلة نسب أخرى ليوسف النجار (لوقا / ٣/٢٣ ـ ٢٧) تختلف عن هذه تمامًا في نصفها الأخير، فكيف يمكن الثقة بهذه الكتب ويراد منا أن نجعلها عيارًا على القرآن؟

(١٨٥) لوقا / ٢٠/٤١ ـ ٤٤.

يقول بعد أسطر عن مريم: «فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع... وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل»(١٨٦). فما هو اسم المسيح الحقيقي؟

ويدعي صاحب مقالة «زكريا» أن القرآن يقول إنه كلما دخل زكريا المحراب على مريم وجد عندها فاكهة طازجة(١٨٧). وهذا غير صحيح، إذ لم يقل القرآن أكثر من أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها «رزقًا حسنًا»(١٨٨)، وذلك دون تحديد لهذا الرزق. أما حكاية «الفاكهة الطازجة» فهذا كلام مستشرقين لا يبالون بما يقولون ولا يقيمون وزنًا للكلمة التي يخطّونها. لو أن ذلك المستشرق قال إن من المفسرين من يقول بهذا ما اهتممنا بما يقول. أما أن يزعم أن ذلك في القرآن فها هو ذا القرآن حاضرًا يكذّب دعواه.

ويقول تريتون إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أثنى في البداية على النصارى، وذلك في قوله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)**﴾(١٨٩) وقوله جل شأنه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)**﴾(١٩٠)، حيث يُذْكَرون بالخير هم واليهود والصابئون جميعًا، ثم عاد فانقلب عليهم فيما بعد، ربما نتيجة اتصاله بالدول النصرانية، فهاجم قولهم إن

(١٨٦) متى / ١/٢١ ـ ٢٣.

(١٨٧) ٦٥٣ / ٢.

(١٨٨) آل عمران: ٣٧.

(١٨٩) البقرة: ٦٢.

(١٩٠) المائدة: ٦٩.

المسيح ابن الله (التوبة: ٣٠)، وأشار إلى انقسام النصارى فيما بينهم (المائدة: ١٤)، كما فُنِّدت عقيدة التثليث بصفة خاصة (النساء: ١٧، والمائدة: ٧٣)[١٩١].

وكلام تريتون يوحي بأن الرسول كان يوافق النصارى في البداية على عقائدهم في الآب والابن والروح القدس، وقولهم إن المسيح هو الأقنوم الثاني في هذا الثالوث، وهو أقنوم الابن، وإنه قد صُلب تكفيرًا عن خطيئة آدم، التي يدّعون أن ذريته قد ورثتها عنه، ثم رجع عليه السلام عن موقفه الودي ذاك بفعل الاحتكاكات التي نشأت بين المسلمين والروم، فأخذ يسفّه معتقداتهم وخلافاتهم فيما بينهم بشأنها. ودليل الكاتب على ذلك الموقف الوُدّي المدَّعي هو آيتا سورة «البقرة» و«المائدة» السالفتان، وهو ما يفيد أن هاتين الآيتين (بغض النظر الآن عن صحة ما يخلع عليهما من معنى أو عدمه) هما أول ما أنزل من القرآن في النصارى ودينهم.

وهذا كله باطل تمام البطلان، فالآيتان من الآيات المدنية، وقد سبقتهما آيات أخرى مكية في حق النصاري، فماذا تقول تلك الآيات؟

جاء في سورة «الزخرف»: **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾**[١٩٢]. وفي سورة

(١٩١) ٤٤٠ /١/ مادة «نصارى».

(١٩٢) الزخرف: ٥٧ ـ ٦٥.

«مريم» نقرأ الآيات التالية، وهي مما تلاه جعفر بن أبي طالب على نجاشي الحبشة عندما كان مع فريق من المسلمين في حماه وأرسلت قريش وراءهم تؤلّب عليهم ذلك الملك وتوقع بينه وبينهم وتخبره أنهم يقولون في عيسى كلامًا لا يرضى هو عنه ولا النصارى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾(١٩٣). فهذان نصان مكيان، وقد نزلا بطبيعة الحال قبل الاحتكاك بين المسلمين والروم، وهما يقرران موقف الإسلام بمنتهى الوضوح مما يزعمه النصارى لعيسى عليه السلام من بُنُوَّته لله تعالى. ولم يمنع المسلمين من إعلانه دون ترددٍ أو مواربةٍ استضافةُ النجاشي لهم ولا وجودُ كبار رجال دينه في الجلسة التي عُقِدت لسماع رأي الإسلام في هذه القضية(١٩٤). ولو كان موقف الإسلام يتأثر بالظروف السياسية، كما يزعم الكاتب، لكتم الضيوف المسلمون هذه الآيات وأعطوا للنجاشي ما يرون أنه يرضيه. فالقول بأن الرسول كان يثني على النصارى أولاً ويوافقهم على ما يعتقدونه في عيسى هو كلام عارٍ تمامًا عن الصحة جملة وتفصيلاً.

ومثله عُرْيًا عن الصحة القول بأن آيتي «البقرة» و«المائدة» السالفتين تمدحان

(١٩٣) مريم: ٣٠ ـ ٣٧.

(١٩٤) انظر في قضية النجاشي والمسلمين وجعفر: عروة بن الزبير / مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم/ جمع وتحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي / ١١١ ـ ١١٣، وسيرة ابن هشام/ تحقيق السقا والإبياري وشلبي / ١/٣٢٤ ـ ٣٢٨.

النصارى وتذكرانهم بالخير. ذلك أنهما تشترطان لنجاتهم يوم القيامة أن يؤمنوا بـالله واليوم الآخر ويعملوا صالحًا، وهو ما يستلزم أن يؤمنوا بكل الرسل من لدن آدم إلى محمد عليهم جميعًا السلام. وإن الآيتين ١٥٠و ١٥١ من سورة «النساء» لتوضحان ذلك، إذ تقولان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾. ومثلهما الآية ٩٢ من سورة «الأنعام»، التي تشير إلى القرآن قائلة: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾. وتأتي الآية ٢٩ من سورة «التوبة» لتوضح الأمر توضيحًا ساطعًا لا لبس فيه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾.

إذن فموقف القرآن تجاه النصارى (وغيرهم) واحد من البداية إلى النهاية، لا علاقة له بالظروف السياسية التي مرت على المسلمين، إذ هو وحي إلهي يقدم العقيدة الصحيحة ويرسم الأخلاق الفاضلة ويقوّم الآخرين تقويمًا موضوعيًا دون نظر للاعتبارات الدنيوية(١٩٥).

ويثير عدد من المستشرقين، ومنهم كاتبا مادتي «عاد» و«هود» الشك في وجود هذا النبي الكريم وقومه(١٩٦). وهم بهذا يرفضون ما جاء في القرآن الكريم متعلقًا بهذا الموضوع، إذ يعدونه (كما يعدون القرآن كله) من تأليف محمد ولا يرون له

(١٩٥) سبق تناول هذه القضية فى كتابي «مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى ١٢٧ وما بعدها

(١٩٦) ١/١٣، ٢/١٤٠.

أساساً من الصحة.

والناظر في دواوين الشعر الجاهلي يجد اسم «عاد» يتردد فيها غير قليل من المرات بحيث يصعب على الإنسان أن يظن أن هؤلاء الشعراء (وشعرهم في هذا بطبيعة الحال يعكس معارف أمتهم التاريخية التي توارثوها جيلاً بعد جيل) مخطئون ولكنهم تواصوا مع ذلك بترديد هذا الكلام، إذ السؤال هو: لم يفعلون ذلك؟ وما مصلحتهم؟ لو أن ذِكْر عاد لم يجئ إلا في شعر ما بعد الإسلام فلربما كان لهؤلاء المستشرقين ومن يشايعهم شيء من العذر في رفضه بحجة أن الشعراء المسلمين يتابعون ما جاء في القرآن. أما ورود هؤلاء القوم في شعر الجاهليين على هذا النحو فمن الصعب رده. ومما هو حقيق بالذكر أن المستشرقين لا يشكون في هذه الأشعار. وقد أشار كاتب مادة «عاد» إلى مواضع عدد من الأبيات الجاهلية التي تذكر هؤلاء القوم. وقد تتبعت هذا الاسم في الدواوين الجاهلية المتاحة لي فجمعت منها عدداً لا بأس به. وقد أورد د. جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» قول طرفة:

أحلام عاد وأجساد مطهرة ... من المعقة والآفات والإثم

وقول زهير:

فتنتجْ لكم غلمان أشْأَمَ كلُّهم ... كأحمر عادٍ ثم ترضعْ فتفطم

وقول طفيل الغنوي: «لنا الجبلان من أرمان عاد»، وقول أمية بن أبي الصلت:

فقال: ألا لا تجزعي وتكذّبي ... ملائكة من رب عاد وجرهم

وقول سويد بن أبي كاهل:

غَلَبَتْ عادا ومن بعدهمو ... فَأَبَتْ بعد فليست تتضع

وقول صريم بن معشر بن ذهل:

لو أنني كنت من عـــــاد ومن إرم ربِّيت فيهم ولقمان ومن جدن[197]

وهأنذا أضيف إلى ذلك ما عثرت عليه بنفسي من الشواهد، ومنها هذا البيت للقيط بن يعمر الأيادي يحذر قومه من استعداد كسرى لغزوهم:

على حَنَقٍ أتينكمــو، فهـــــــذا أوان هلاككم كهلاك عـــــادِ[198]

والبيتان التاليان لزهير:

دَحْل أبي المرقـــال خَيْرُ الأدْحُـــلِ من نحت عادٍ في الزمان الأوّلِ[199]

* * *

ألـم تــر أن الله أهلك تُبَّعـــــاً وأهلك لقمان بن عاد وعاديا؟[200]

وهذان البيتان أيضًا لطرفة:

ولقد بدا ليَ أنه سيَغُـــولُنـــــي ما غال عادا والقرون فأشعبـــوا[201]

* * *

ألم تر لقمان بن عـــاد تتابعـــــت عليه النسور ثم غابت كواكبه؟[202]

وكذلك الأبيات التالية للأعشى:

ويقـــول من يبقيهمـــو بنصيحيـــة هل غير فعل قبيلة من عـــــاد؟[203]

* * *

(197) د. جواد علي/ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / 1/206 ـ 207 (في الهامش).

(198) ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق أحمد شاكر /1/200.

(199) شعر زهير بن أبي سلمي /صنعة أبي العباس ثعلب /تحقيق د. فخر الدين قباوة / 60.

(200) السابق / 209.

(201) ديوان طرفة بن العبد / 12.

(202) السابق / 13.

(203) ديوان الأعشى/ شرح وتعليق د. محمد محمد حسين/ 133.

ألـــم تروا إرمـــــا وعـــــــادا أودي بها الليـل والنهـــــــار؟[٢٠٤]

* * *

وقال لأدناهن إذ حـل ريشـــــــــه: هلكت وأهلكت ابن عاد وما تدري(٢٠٥)

وهذا البيت لعمرو بن معديكرب:

قديم عهــده من عهـــــد عــــادٍ عظيم قاهر الجبروت قـــاســـي[٢٠٦]

وقول ابن الزبعري:

كانت بها عاد وجرهـــــم قبلهـــــم والله من فوق العبــاد يقيمهـــا[٢٠٧]

والبيت التالي للبيد:

ولقد بَلَتْ إرم وعـــــاد كيـــــــده ولقـد بكته بعـد ذاك ثمـــود[٢٠٨]

وقول أفنون التغلبي:

لو أنني كنـت من عـــادٍ ومـــن إرمٍ ربِّيت فيهم ولقمان ومن جَدَنِ[٢٠٩]

وقول متمم بن نويرة

أفنين عـــــادًا ثـم آل محـــــــــرِّقٍ فتركنهم بلدا وما قد جمّعـوا[٢١٠]

ثم هذه العبارة الوعظية لقس بن ساعدة الإيادي: «أما بعد، يا معشر إياد،

---

(٢٠٤) السابق / ٢٨١.

(٢٠٥) السجستاني/ المعمرون والوصايا / تحقيق عبد المنعم عامر / ٥.

(٢٠٦) سيرة ابن هشام / تحقيق السقا والإبياري وشلبي / ١/٤٠.

(٢٠٧) السابق / ١/٥٨.

(٢٠٨) شرح ديوان لبيد / تحقيق د. إحسان عباس / ٣٤.

(٢٠٩) المفضليات / مفضلية ٦٦. وقد سبق إيراد هذا البيت قبل قليل، ولكن منسوبًا إلى صريم بن معشر بن ذهل.

(٢١٠) السابق/ مفضلية ٥٣.

فأين ثمود وعاد؟»[٢١١]... وهكذا. وكل هذه الشواهد، كما هو ملاحظ، تتحدث عن عاد بصفتهم قوما قد هلكوا في الدهر الأول، وهو ما يتسق مع ما جاء في القرآن الكريم، وإن كان في بعضها تفصيلات لم تأت فيه، كنحت عاد، ولقمان بن عاد.

وقد ذكر بطليموس من أقوام العرب القدماء «Oaditae»، وقال إنهم يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من الجزيرة العربية على مقربة من أرض ثمود. ورأى الباحثون من غربيين وعرب أن هؤلاء قوم عاد. وتشير بعض الاكتشافات الغربية في المنطقة إلى حقيقة وجود هؤلاء الناس[٢١٢].

ثم ظهر بعد ذلك بحث للمستشرق أ. فان براندن قدم فيه اكتشافه لأحد النصوص الموجزة، ويجري هكذا: «زيات بن جر من قبيلة عاد»، ورجح أنه يعني: «أحد أفراد قبيلة عاد، التي يكثر ذكرها في القرآن الكريم»[٢١٣]. وهناك نص آخر أشار إليه فورستر، هو نص أطلال حصن الغراب، جاء فيه أن شريعة حمير (وهم القوم الذين يرى نادثي أنهم هم عاد الثانية) مستمدة من ديانة هود[٢١٤]. كما أن

(٢١١) السابق / ٨٩.

(٢١٢) انظر في ذلك العقاد / مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية / ٦١، ٦٢، وكذلك كتابه «إبراهيم أبو الأنبياء» / ١١٩، ود. جواد علي / المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ١/٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٦، ود. أحمد سوسة / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ٨٥٣، ود. السيد عبد العزيز سالم/ دراسات في تاريخ العرب ـ تاريخ العرب قبل الإسلام/ ١/ ٥٦، ود. محمد بيومي مهران/ دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب / ٢٤٣ ـ ٢٤٥. وانظر أيضًا ما قاله جرجي زيدان في هذا الموضوع في كتابه «العرب قبل الإسلام»/ مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس/ ٧٥، ٧٦.

(٢١٣) انظر هارون أحمد العطاس/ عاد في التاريخ/ ٢.

(٢١٤) انظر سيد مظفر الدين نادثي/ التاريخ الجغرافي للقرآن / ترجمة عبد الشافي غنيم وحسن محمد جوهر / ١٨٢، ١٨٣. والنص المشار إليه منقول عن كتاب فورستر =

هناك عدة أبيات لشاعر جاهلي يتحدث فيها عن عاد وهلاكها لعصيانها رسولها هودا، ويعلن إيمانه بدين ذلك النبي. وهذا الشاعر هو يزيد بن سعد قال:

عصت عادٌ رسولهمو فأمسوا ... عطاشاً لا تمسهم السماءُ

لهم صنم يقال له: «صمود» ... يقابله صداء واليفاء

وإن إله هودٍ هو إلهي ... على الله التوكل والرجاء(٢١٥)

أمّا شكّ فريق من المستشرقين في وجود عاد ونبيهم هود لعدم ورود ذكرهم في العهد القديم فلا معنى له: أولاً لأن العهد القديم لا يحتوي على كل تاريخ العالم في الأزمان الماضية. وثانياً: لأنه، كما هو معروف، ليس فوق مستوى الشبهات. ولا يُعْقَل أن نهمل كلّ هذه الدلائل من شعر جاهلي ومكتشفات حديثة وفوق ذلك كله ما ورد في القرآن عن قوم عاد ونتمسك بشبهة خلو العهد القديم من الحديث عنهم.

ويعلل الأستاذ العقاد، رحمه الله، سكوت كتاب العهد القديم عن عاد (وثمود أيضاً) بأنه محاولة منهم للتعفية على كل رسالة إلهية في أبناء إسماعيل(٢١٦). وهو تفسير يقوم على فهم عميق لنفسية بني إسرائيل الحاقدة على البشر، وبالذات العرب من سلالة إسماعيل، الذي ادعوا كذباً أنه لم يكن هو الصبي المفتدى، رغبة منهم في حرمانه من هذا الشرف وتحويله إلى جدهم إسحاق ليفوزوا من ثم به دون العرب.

* * *

= .«Historical Geography of Arabia»

(٢١٥) تاج العروس / مادة «صمد».

(٢١٦) العقاد/ إبراهيم أبو الأنبياء / ١١٩.